عِظَةُ النّاشِئين

كتابُ أخلاقٍ وآدابٍ واجتِماع

كتبه

الشيخ مصطفى الغلاييني

(١٣٠٣-١٣٦٤ هـ / ١٨٨٦-١٩٤٤ م)

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

عظة الناشئين

كتاب أخلاق وآداب واجتماع

كتبه

الشيخ مصطفى الغلاييني
١٣٠٢-١٣٦٤هـ/١٨٨٦-١٩٤٤م

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٧٨٥٤٢ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3295-4
90000
9782745132956

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المصنف[1]

(١٣٠٣ ـ ١٣٦٤هـ/ ١٨٨٦ ـ ١٩٤٤م)

هو الشيخ مصطفى بن محمد سليم الغلاييني: شاعر، من الكتاب الخطباء. من أعضاء المجمع العلمي العربي. مولده ووفاته ببيروت. تعلم بها وبمصر، وتتلمذ للشيخ محمد عبده (سنة ١٣٢٠هـ). ولما كان الدستورُ العثماني أصدر مجلة «النبراس» سنتين، ببيروت، ووظف فيها أستاذاً للعربية في المدرسة السلطانية أربع سنوات، وعيّن خطيباً للجيش الرابع (العثماني) في الحرب العامة الأولى، فصحبه من دمشق مخترقاً الصحراء إلى ترعة السويس من جهة الإسماعيلية وحضر المعركة والهزيمة. وعاد إلى بيروت، مدرساً. وبعد الحرب أقام مدة في دمشق، وتطوّع للعمل في جيشها العربي. وعاد إلى بيروت فاعتقل بتهمة الاشتراك في مقتل «أسعد بك» المعروف بمدير الداخلية (سنة ١٩٢٢) وأفرج عنه فرحل إلى شرقي الأردن، فعهد إليه أميرها (الشريف عبد الله) بتعليم ابنيه، فمكث مدة وانصرف إلى بيروت، فنصب رئيساً للمجلس الإسلامي فيها، وقاضياً شرعياً إلى أن توفي.

من كتبه: «نظرات في اللغة والأدب»، و«عظة الناشئين» وهو الكتاب الذي بين أيدينا، و«لباب الخيار في سيرة النبي المختار» رسالة اختصرها من كتابه «خيار المقول في سيرة الرسول»، و«الإسلام روح المدنية» في الرد على كرومر، و«نظرات في كتاب السفور والحجاب»، و«الثريا المضية في الدروس العروضية»، و«أريج الزهر» مجموع مقالات له، و«رجال المعلقات العشر»، و«الدروس العربية» مدرسي، و«ديوان الغلاييني».

---

(١) انظر الأعلام لخير الدين الزركلي (٧/ ٢٤٤، ٢٤٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، الرَّحمن الرَّحيم، مالك يوم الدين[١]، إياك نعبدُ وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم[٢] صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم، ولا الضالين.

وبعدُ، فهذه شَذراتٌ[٣] كنت أنشرها في جريدة المفيد، تحت عُنوانِ «عظة الناشئين» وبإمضاء «أبي فياض». وقد كان لها في نُفوس القرّاء جميلُ الوقعِ، وعظيمُ التأثير. وكان كثيرٌ منهم يَستحسن أن تُطبع هذه العظات في كتابٍ وتُنشر بين من لم يكن يطالعُ تلك الجريدة. فلما قتلتُ هذا الأمر يقيناً[٤]، عَزَمتُ على نشرها بين شبان الأمة لتكون لهم نبراساً[٥] وهدى. والله الموفق.

«الغلاييني»
بيروت سنة ١٣٣١هـ
سنة ١٩١٣م

---

(١) النبراس: المصباح يستضاء به.
(٢) يوم الدين: يوم الحساب والجزاء على الأعمال، وهو يوم القيامة.
(٣) الصراط: الطريق، والمستقيم: المعتدل ضد المعوج.
(٤) الشذرات: جمع شذرة، وهي اللآلئ الصغار، وقطع الذهب تلتقط من معدنه بدون إذابة الحجارة، وتشبه بها المواعظ الجميلة والقطع الحسنة من الكلام.
(٥) قتل الأمر يقيناً: علمه علم اليقين، واليقين: هو إزاحة الشك وتحقيق الأمر.

مقدمة الكتاب

إخواني النَّاشئين:

هذه عظاتٌ[١] نافعة، ولآلئُ لامعة، سترونها منظُومةَ[٢] العِقْد في سلْك العِبْرةِ، منثورة[٣] الفائدة بقَلم الحكمة، تُرشدُ إلى الْمَنهج القَويم[٤] بالأسلوب الحكيم[٥]، وتَهْدي مَن عَمِلَ بها إلى صراطٍ مستقيم.

أنشأتُها ورائدي فيها الإخلاص[٦]، وصُواي[٧] صِدْقُ النِّيَّة. وهي تحمِلُ بين جوانحها[٨] موضوعاتٍ شتَّى، من الاجتماع والأخلاق، وتَنطوي أضالِعُها[٩] على مضامين[١٠] مُتنوِّعةٍ من الآداب والحِكَم.

فهيَ جَعْبَةُ عِبَر، وكِنانة عِظَاتٍ[١١] يَدْرَأُ بها[١٢] النَّاشئ عن نفسه جيوشَ الخُمُول وكتائبَ الضِّعَة[١٣] ويَدفَعُ ما ينتابُها من عوادي الأمراض

---

(١) العظات: جمع عظة، وهي: النصح والتذكير بالعواقب.

(٢) منظومة: مجموعة مؤلفة.

(٣) منثورة: مفرقة.

(٤) المنهج: الطريق الواضح.

(٥) الأسلوب: الطريق، والفن من الكلام ـ والحكيم: ذو الحكمة، وهي: الكلام الموافق للحق، ووضع الشيء في موضعه.

(٦) الرائد: الدليل. وأصل معناه الرسول الذي يرسله القوم ليرى لهم مكاناً ينزلون فيه.

(٧) الصوى: حجارة تنصب في الطريق ليهتدي بها المارون، وهي جمع صوَّة، بضم الصاد وفتح الواو مشددة، والمراد بها هنا الأدلة.

(٨) الجوانح: الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر كالضلوع مما يلي الظهر. والترائب: عظام الصدر، ومفردها تريبة.

(٩) تنطوي: تشتمل ـ والأضالع: عظام صغيرة من عظام الجنب وهي جمع أضلع، ومفرد الأضلع ضلع.

(١٠) المضامين: جمع مضمون، ومضمون الكلام فحواه وموضوعه.

(١١) الجعبة والكنانة: الوعاء، وأصل معناهما: وعاء السهام والنشاب.

(١٢) يدرأ: يدفع.

(١٣) الكتائب: الجيوش، ومفردها كتيبة ـ والضعة: الانحطاط والخسة.

الاجتماعيّة[١]، وطوارئ الأسقام الزّمَنيّة[٢].

فعضُّوا عَلَيْها أيُّها النّاشئونَ بالنَّواجِذ[٣] تكُنْ لكم دريئَةً[٤] يومَ تكُونونَ شُباناً، وذُخْراً حينَ تصيرونَ شِيباً[٥] وسَلامٌ على من سمِعَ عِظَتي فوَعَاها[٦] وعَمِلَ بمقْتضاها.

(١) ينتابها: يصيبها مرة بعد أخرى ـ العوادي: النوازل.

(٢) الطوارئ: الحوادث والدواهي.

(٣) النواجذ: أقاضي الأضراس، وهي أربعة، ويقال عض على الأمر بنواجذه وبناجذيه: إذا حرص عليه.

(٤) الدريئة: ما يستتر به الصائد ليختل الصيد ويخدعه حتى إذا أمكنه الصيد رمى. وهذا الأمر دريئة لي: أي وقاية وحفظ.

(٥) الذخر الذخيرة، وجمعه أذخار، والشيب: جمع أشيب، وهو من أدركه الشيب.

(٦) وعاها: حفظها وتدبرها وقبلها.

الإقــدام[1]

خَلَقَ اللهُ الإنسان لِيكُون عاملاً لما يُحييه، ساعياً في مناكب الأرض[2]، منتفِعاً بخيراتها، دائِباً[3] فيما يعودُ عليه وعلى مجموع الأُمَّةِ بالخيرِ الجَمِّ[4]. ولا يكُونُ ذلك إلَّا بالإقدام وبذلِ الجُهد[5].

إن السَّلَفَ الصالح لم يَبْلغ تِلكَ العَظَمَةَ الهائلة[6]، ولم يذلّل تِلْكَ العَقَباتِ[7] الصَّعبة المُرتقى، ولم يصِل إلى ما يُطَأْطَأُ[8] عِنْدَ ذكرهِ كُلُّ رأس، إلا بالإقدام وإثارةِ الهِمَّة[9].

وإنَّ الخَلَفَ لم يتَأَخَّر عن هذه المرتبة، ولم يُقَصِّر عن تِلكَ الغَاية[10]، إلَّا بَعدَ أن تَقاعس عن العمل النافع[11]، وأحجَم عن الأخذ بشتات الحزم[12].

إنَّ الأُمم كلَّها قد نَهضَت، وبلَغَت من مختلِفِ المُنى ما بَلَغت[13] بَعدَ أن

---

(١) الإقدام: مصدر أقدم على الأمر بمعنى جرؤ عليه.
(٢) مناكب الأرض: نواحيها وجوانبها وطرقها. ومفردها منكب.
(٣) دائباً: جاداً مستمراً.
(٤) الجم: الكثير الغزير.
(٥) الجهد: المشقة والطاقة.
(٦) الهائلة: العظيمة. والهائل من الأمور: ما عظم عليك وأفزعك.
(٧) يذلل: يخضع ويهون والعقبات: الصعوبات، ومفردها عقبة، وأصل معناه: المرتقى الصعب في الجبل، والطريق في الجبل.
(٨) يطأطأ: يخفض وينكس.
(٩) إثارة الهمة: تحريكها وتهييجها.
(١٠) الغاية: المدى، ونهاية الأمر، والفائدة المطلوبة. والنسبة إليها غائي، وجمعها غاي وغايات، كما تقول: ساعة وساع وساعات.
(١١) تقاعس: تأخر ولم يقدم، والتقاعس: التأخر.
(١٢) أحجم: كف وتأخر ـ والشتات: المختلف المتفرق.
(١٣) المنى: جمع منية، وهي البغية والمراد، وما يتمناه الإنسان.

كانت هباءً منثوراً[١]، وطِمْراً[٢] محقوراً، وعُضواً مبتوراً[٣]، ونحنُ لم نزل في سُباتٍ عميق[٤]، ومكان من التَّقاعُس سحِيق[٥] وقد كُنَّا السَّابقين الأوَّلين، والهادِينَ المَهْدِيِّين!

فأَحْيُوا، يا رعاكُم الله، هذا المجدَ الدَّاثر[٦]، وأقيلوا ذلك الشَّرَفَ العاثِر[٧]، وأنْشِروا[٨] ما كانَ من عزكُمْ مَقْبُوراً، ولا تَجعَلوهُ شيئاً مهجوراً. إني أرى، إن لم تستيقظُوا، كَفَناً مَنْشوراً، وقَبْراً محفوراً، وهنالك ندعو ثُبوراً[٩]، فلا نَجِدُ نصيراً، ولا نُلْفي ظهيراً[١٠].

فانْهضوا نَهْضَةً تميدُ لها الرَّاسِيات[١١] وتسكنُ عندها الجامحات[١٢]، قبلَ أن تقرَعَنا القارعات[١٣]، وتَصُخَّنا الصَّاخَّاتُ[١٤]، فَنَلْتَمسُ الممات، فلا نَجدُ إلَّا الوَيْلات[١٥].

إنَّ في يَدِكُم أمرَ الأُمَّة، وفي إقدامِكم حياتَها فأقدموا إقدامَ الأسَدِ الباسل[١٦]،

---

(١) الهباء: الغبار، وهي شيء يشبه الدخان ينبث في ضوء الشمس ـ منثورة: متفرقة.
(٢) الطمر: الثوب الخلق البالي، وجمعه أطمار ـ والمحقور: المحتقر المرذول.
(٣) المبتور: المقطوع.
(٤) السبات: النوم، والراحة، ومنه يوم السبت، لأنه يوم راحة لليهود ينقطعون فيه عن الأعمال.
(٥) سحيق: بعيد.
(٦) الداثر: البالي الممحو.
(٧) أقيلوا الشرف: انهضوا به وارفعوه. يقال عثر فلان فأقلته من عثرته: أي كبا فرفعته من كبوته.
(٨) أنشروا: أحيوا، الإنشار: الإحياء بعد الموت.
(٩) الثبور: الهلاك والخسارة والخيبة.
(١٠) نلفي: نجد ـ وظهيراً: معيناً.
(١١) تميد: تضطرب وتتحرك وتزيغ ـ والراسيات: الجبال.
(١٢) الجامحات: الخيول تجمح براكبها حتى تلقيه عن ظهرها.
(١٣) تقرعنا: تصيبنا وتفاجئنا ـ والقارعات: المصائب والدواهي.
(١٤) تصخنا: تضربنا. أو تصم آذاننا ـ والصاخة: صيحة تصم الآذان لشدتها، وأصل معنى الصخ ضرب الحديد على الحديد.
(١٥) الويلات: الفضائح والبليات ومفردها ويلة.
(١٦) الباسل: الشجاع الكريه اللقاء.

وانهضُوا نُهُوضَ الرَّوايا[١] تحت ذات الصَّلاصِل[٢] تَحْيَ بكُم الأُمة.

والله لكُم مُعين وهو يجزي المُقدِمين.

(١) الروايا: الدواب التي تحمل مزادات الماء ومفردها راوية.

(٢) الصلاصل: الأصوات والرعود. والمراد بذات الصلاصل المزادات التي تحمل على الروايا؛ لأنها تكون من جلد فتصوت عند قيام الدابة بها وعند مشيها. والمراد انهضوا نهوضاً شديداً.

الصبر

إنَّ الرَّجلَ العاقِلَ من يَصبِرُ على الخُطوب[1]، ويقابلُها رابِطَ الجَأْش[2]، ولا يقابِلُها مَشْدُوهاً[3]، لا يَسْتقِرُّ على حالٍ منَ القَلَق.

والنَّفْسُ العاقلة، فيها مَلَكة التُّؤدةِ[4] والتأني، فهي تسعى هادئة لتُزيلَ ما أَلَمَّ بها من الخَطْب[5]، وتَدفعَ عنها عاديةَ المِحَن[6].

أما النَّفْسُ الجاهلة، فهي دائمةُ الاضطراب لكُلِّ خَطْبٍ يَنْزِلُ، وإن كان يَسيراً[7]، لأنها تَعتقِدُ أنْ لا قِبَلَ لها بتلَقِّيه[8] ولا طاقة لها بدَفْعِه، فهيَ لا تستطيعُ التَّمَلُّصَ منهُ ولا تَقْدِرُ على التَّفَصِّي من عادِيَته[9].

وهذا هُوَ الفَرْقُ بين النَّفْسَينِ.

فَكُنْ، أيُّها النَّاشئ، ذا نَفْسٍ عاقلة صابرة، وذلك بِتَعْويدها اكتسابَ الفضائِلِ، ونَبْذَ الرَّذائِل[10] والتَّحَلِّي بالكمالات الإنسانيَّة والتجملَ بِحلَى الرُّجولية[11] وذلك

---

(١) الخطوب: الأُمور شديدة كانت أو غير شديدة. والمراد بها هنا الأُمور العظيمة ومفردها خطب.

(٢) الجأش: النفس. وفلان رابط الجأش أي يربط نفسه عن الفرار ويمنعها لشجاعته والجمع جؤوش.

(٣) شده فلان «بالبناء للمجهول»: دهش وشغل وحير، فهو مشدوه.

(٤) الملكة: الصفة الراسخة في النفس ـ والتؤدة: الرزانة والتأني.

(٥) ألم بها: نزل بها.

(٦) العادية: النازلة والمصيبة ـ والمحن: جمع محنة وهي ما يمتحن به الإنسان من بلية.

(٧) يسيراً: قليلاً هيناً.

(٨) لا قبل له بالأمر: لا طاقة له به.

(٩) التفصي: التخلص والتملص والتفلت.

(١٠) النبذ: الطرح.

(١١) التجمل: التزين ـ والحلى: بكسر الحاء جمع حلية وهي ما يتحلى به الإنسان ويتجمل به ـ والرجولية: صفة الرجال ومثلها الرجولة.

يسيرٌ على من هَداهُ الله النُّزوعَ إلى الفَضيلة[١]، فنزع عنه رِداءَ الرَّذيلة، فَلَمْ يُعْطِ النفسَ الصامتةَ هَواها[٢]، ولم يَسْلُب النَّفْسَ النَّاطقَة مُناها[٣]، فخرجَ بذلك من مَرْتَع الحيوانية، إلى بِيئة الإنسانية[٤].

والله يَجْزي الصابرين على تهذيب النَّفس، ويرفعُهم إلى مَقامِ المُهْتدين، عن مَنزِل اللَّبْس[٥].

فإلى الصبْرِ على تهذيب نُفُوسِكُم أدعوكُم، فإنَّ عاقبة ذلك نجاحُ الدّارين، وسعادةُ الحياتين، والفَوزُ بالحُسْنَيَيْن.

(١) نزع إلى الأمر نزوعاً: ذهب إليه ومال إليه.
(٢) النفس الصامتة: هي النفس الجاهلة الأمارة بالسوء.
(٣) النفس الناطقة: هي النفس العاقلة المرشدة إلى الفضائل.
(٤) البيئة: الحالة والمنزل.
(٥) اللبس، بفتح اللام: الحيرة والتباس الأُمور واختلاط الظلام.

النفاق[1]

لم أرَ بَينَ الخِلالِ[2] القَبيحة، والصِّفات الضارة ـ التي سرتْ في جسم الأُمَّة سَريانَ الكهرباء في الأجسامِ ـ خَلَّةً أقبَح، ولا صِفَةً أشنَع، من داءِ النِّفاق.

ذلك الداءُ الوبيلُ[3]، والمرَضُ الفتَّاك[4]، أكثرُ ضَرراً بالأُمَّة من ألدِّ أعدائها[5]، الذين يتحَيّنون[6] الفُرَصَ للانتقاضِ عليها[7]، وانتِقاصِ بلادِها من أطرافها.

إنَّ العدوَّ المُهاجِم، إذا رأته الأُمَّةُ تهيأتْ لدفع أذاهُ، وصَدِّ غاراته، بما هُوَ عَتيدٌ[8] لَديْها من وسائل الدِّفاع، وأسباب المُصادَمَة. فإن لم تَتَّقِ[9] شَرَّهُ كلَّهُ، فإنها تَدْرَأُ عنها[10] ما تَسْتَطيع دَرأهُ من أواذيّ عُدوانه[11].

أَمَّا المُنافقُ ـ عَدُوُّ الأُمَّةِ الرَّابِض[12] في قَلْبها ـ فهي لا تَدْري كَيفَ تُحارِبه، ولا تَعرِفُ من هُوَ لتُقاوِمَهُ، فَهُوَ يُضعِفُ قُوَّتها المَعنَويَّة، ويخدِّرُ أنباضَ نهضتها المُبارَكة[13]،

---

(١) النفاق: أن يظهر المرء خلاف ما يبطن.
(٢) الخلال: الخصال، ومفردها خلة بفتح اللام مشددة.
(٣) الوبيل: الشديد.
(٤) الفتاك: الشديد الفتك. والفتك البطش أو القتل على حين غفلة.
(٥) ألد الأعداء: هو الخصم الذي لا يميل إلى الحق.
(٦) يتحينون: يترقبون.
(٧) انتقض عليه: تغير عليه.
(٨) عتيد: مهيأ حاضر.
(٩) اتقى الشر: تحفظ منه.
(١٠) تدرأ: تدفع.
(١١) الأواذي: الأمواج، ومفردها آذي، والمراد بها المضرات.
(١٢) الرابض: الجالس المستقر.
(١٣) يخدر: يضعف ـ والأنباض: جمع نبض، وهو حركة القلب والعروق.

وهيَ حَيْرَى مما يُصيبُها، ولْهَى[١] من داءٍ لا تعرِفُ كُنهه[٢] ولا مصْدرَهُ.

فإذا دامت الأُمَّة على ذلك حيناً من الدَّهر، من غير أنْ تبحث بحثاً دقيقاً، وتَفْحَصَ فحصاً حكيماً لتعرفَ تلك الجُرثُومَةَ المَوبوءَة[٣]، فتَسعى لإبادتها[٤]، وتَعلَمَ كُنْهَ مرَضِها، فتُداوِيَهُ بالدَّواءِ النَّاجِع[٥]، كانَت عاقبةُ أمرِها انحلالَ الرَّوابط، وفَسادَ الأخلاقِ. وهناك الموتُ الأكبر، الذي يَمْحُو الأُمَّةَ من لوح الوجود، فتَكُونُ مَعَ الهالكينَ.

فأُعيذكُم، مَعْشرَ النَّاشئين، أن تكُونوا من المنافقين.

إحذَروا أن يَدِبَّ في قلوبكم دبيبُ هؤلاءِ الأشرار[٦]، فتَمسَّكُم النَّار. وما هي إلَّا نارٌ تَحْرِقُ الأخضرَ واليابِس، فتَجعَلُ ربُوعَ الأُمَّةِ دَوَارِس[٧].

إعمَلُوا، رَعاكُم الله، على تعريف الأُمَّة بهم، وتحذيرِها كَيدَهم[٨]، وتكُونوا من القَوم الصالحين.

والله مع السَّاعين، لردِّ كَيْدِ المنافقين، لتكُون الأُمَّة في أعلى عِلِّيِّين[٩].

---

(١) ولهى: ذاهلة متحيرة فاقدة الشعور مما أصابها.

(٢) كنه الشيء: حقيقته.

(٣) جرثومة الشيء وجرثومه: أصله ويطلقان اليوم على النسمات يسمونها المكروب، والجمع جراثيم ـ والموبوءة: التي فيها الوباء أو التي أصابها الوباء.

(٤) الإبادة: الإهلاك.

(٥) الناجع: المفيد.

(٦) يدب: يمشي ويسري. والدبيب هنا: هو بمعنى الأفكار الفاسدة التي تسري في الإنسان من حيث لا يشعر، شبهت بالدبيب وهي الهوام «الحيوانات الصغيرة» التي تسري في المال وتنسل فيه انسلالاً.

(٧) الربوع: الديار ـ ودوارس: ممحوة الآثار.

(٨) الكيد: الخداع والمكر.

(٩) أعلى عليين: أرفع الدرجات وعليون هو اسم لأعلى الجنة، ويعرب إعراب جمع المذكر السالم بالواو رفعاً والياء نصباً وجراً، لأنه ملحق به.

الإخـلاص

العملُ جسمٌ روحُهُ الإخلاص.

إنَّ الجسمَ متى فارقتهُ روحُهُ التي بها قِوامُهُ[(١)] كان جثَّة هامدة[(٢)] لا حَراكَ فيها ولا فائدةَ تُرْجَى منها، فكذلك العَمَلُ إذا زايلهُ الإخلاص[(٣)].

كم رأينا قوماً يعملُونَ! غيرَ أَننا لم نَرَ أَثراً صالحاً لِعَملهم وكثيرٌ منهُم لم يُوَفَّق فيما قَصدَ إليه، فظَلَّ في شاطئِه، أو خاضَ منهُ ضَحْضاحاً[(٤)] ولم يَسْتَطع أن يصلَ إلى الغَمْر[(٥)]، فَنَكَص على عَقِبَيْهِ[(٦)] خَسيرَ النَّصَب والذَّهَب[(٧)].

وليس لهذا الأمرِ من سَبب، إلَّا أن الإخلاص لم يكُنْ رائِدَ[(٨)] هذه الفئة، لأنها لَمْ تَعْمَل إلا لجرِّ مغْنَمٍ مَذموم، أو كَسْبِ شَرَفٍ مَوْهوم.

والسِّر في ذلك أنَّ من يَعْمل مُخْلِصاً في عمله لأُمته ووطنه تَهْوِي[(٩)] إليه أفئدةُ الناس ويَحُوطُونَهُ[(١٠)] بالتشجيع والتحبيذِ[(١١)]، أو بالمعونة والتّنفيذ، فيزداد بذلك همةً ونَشاطاً وتَنْمُو[(١٢)] فيه روحُ الجِدِّ والمُثابرَةِ على العمَل.

أما من يعملُ غير مُخلصٍ، فإِنَّهُ، وإن كتَمَ ما يُضْمِرُهُ حيناً من الدهر، لا

---

(١) قوام الأمر: بكسر القاف نظامه وعماده وملاكه الذي به يقوم.
(٢) الجثة: شخص الإنسان ـ وهامدة: ميتة، وأصلها من همود النار وهو انطفاؤها.
(٣) زايله: فارقه.
(٤) الضحضاح: الماء القريب القعر.
(٥) الغمر: الماء الكثير البعيد القعر، والجمع غمار، بكسر الغين.
(٦) نكث على عقبيه: رجع.
(٧) خسير: شديد الخسران، وهو صفة مبالغة ـ والنصب: التعب.
(٨) الرائد: الدليل والمرشد.
(٩) تهوي إليه: تميل إليه، وأصل معناها تسقط.
(١٠) يحوطونه: يحفظونه ويتعهدونه.
(١١) التحبيذ: أن تقول للرجل «حبذا» مادحاً عمله.
(١٢) تنمو: تزيد.

بُدَّ أن يَنْكَشِفَ عَوارُهُ[١]، ويَفتضِحَ أمرُهُ، فينْفِرَ منهُ من كانَ لهُ مُعيناً، ويُهْمِلُهُ من شَجَّعَهُ وحَبَّذَ عَمَلَهُ. وبذلك تضْعُفُ همتُهُ، وتفْتُرُ عزيمته، فيدعُ[٢] ما كانَ يَعْمَلُهُ مضطرًا، وتكونُ عاقبةُ أمرِه خسارَةَ المادَّة والأدب، ويعيشُ عيشةً غيرَ راضية.

والأَمثالُ على ذلك كثيرة:

فكم رأينا جمعيَّاتٍ قامت، فما لبِثَتْ[٣] أن قَعَدَتْ!

وكم شاهَدْنا مشروعات نهَضَت فما مَكَثَتْ أن سَقَطَت.

وتعدادُ هذه الحوادثِ يحتاجُ إلى صفحات، لا يَتَّسِعُ لها صَدْرُ هذه العِظات.

فكنْ، أيُها النّاشئ، مُخلصاً في عَمَلِك: تَبْلغْ أقصى أمَلِك[٤] واحذَرْ أنْ تَبيعَ الوِجدان، بالأصفر الرَّنَّان[٥] فذلك دأْبُ المُنافقين[٦]، الذين يسْتبْدِلونَ الدُّنيا بالدِّينِ والضَّلالَ باليقين.

وأعيذُكَ بالله أن لا تَكُونَ من المُخلِصين.

---

(١) العوار، مثلثه العين: العيب، وأصل معناها الخرق في الثوب.
(٢) يدع: يترك.
(٣) لبثت: مكثت.
(٤) أقصى: أبعد.
(٥) الأصفر الرنان: الذهب.
(٦) الدأب: العادة.

اليـأس(1)

ما استولى اليأسُ على أمّة إلّا أخمَلَها ولا خامَرَ(2) قلوبَ قوم إلا أضعفَها.

وناهيكَ(3) بِضعفِ القُلوبِ مُخمِلاً، فإنهُ أشدُّ ألماً من مَرَضِ الأجسام، وشرُّ أثراً من وقْعِ الحُسام(4).

أمَّا الخمولُ ـ وهو أثرٌ منْ آثار اليأْسِ ـ فَقَد يجعلُ الْمَرْءَ كالحيوان الأعجم، لا يعرفُ من هذه الحياة إلَّا ما تَهتدي إليه البَهائمُ بالسَّوْق الطبيعيِّ: منَ التمتع بالمطاعم والمَشارب والمَلذَّات.

قد قَرنَ الله اليأْسَ بالكُفْر به، في قوله: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ(5) ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فانْظُرْ ما أعظمَ ذَنْبَ اليائسين!

وليس هذا الذَّنبُ رائناً(6) على قلبِ مرتكبهِ في الحياة الكُبرى(7) فَقطْ بل هو يُغشِّي مُجترِمَهُ(8) في هذه الحياة الصُّغرى أيضاً، إذ لو عَرضَت له أمورٌ يجبُ

---

(1) اليأس: القنوط وقطع الأمل.

(2) خامر: خالط.

(3) ناهيك: كلمة تعجب واستعظام، كما يقال «حسبك» وتأويلها أنه غاية فيما تطلبه ينهاك عن طلب غيره. وهي تذكر وتؤنث وتثنى وتجمع لأنها اسم فاعل. تقول هذا رجل ناهيك من رجل، وهذه امرأة ناهيتك من امرأة، وهؤلاء رجال ناهوك من رجال، ونساء نواهيك من نساء، وهذان رجلان ناهياك، وهاتان امرأتان ناهيتاك وإن وقعت بعد النكرة كانت صفة لها كالأمثلة السابقة. وإن وقعت بعد المعرفة كانت حالاً منها، مثل: هذا عبد الله ناهيك من رجل. وإعرابها في نحو «ناهيك بعمر عادلاً» أن ناهيك خبر مقدم، والكاف مضاف إليه، وعمر مبتدأ مؤخر دخلت عليه الباء الجارة الزائدة، وعادلاً: حالٌ.

(4) وقع الحسام: شدة ضربته. والحسام: السيف القاطع.

(5) الروح: الرحمة.

(6) رائناً: مغطياً.

(7) الحياة الكبرى: هي الحياة بعد الحياة الدنيا التي هي الحياة الصغرى.

(8) يغشي: يغطي ـ ومجترمه: مكتسبه.

أن يقوم بأعبائها[١]، فاستبطأ نتائجها[٢]، أو استكبر أنْ تكون، لرأيتهُ مُعْرِضاً عنها إعراضَ الجبان، عن مُنازلةِ الشُّجعان. مع أنه لو ثابَرَ على القيام بها، وواظبَ على مُصادمة ما يَعْتورُهُ[٣] من العوامل في سبيل تحقيقها، وثَبتَ أمامَ العَقبات[٤] التي دونَها، فَذلّلَها بِجِدّ جادٍّ، وعزمٍ وقّاد، ونُفُوذِ نظَرٍ حادّ، لأتَتْهُ مُنقادَةً إليه[٥]، ونالَ من نتائجها ما يروم.

ولكنْ، هُو اليأسُ، مُهَدِّمُ الآمالِ، ومُقوِّضُ[٦] أركانِ الأعمال.

لو رَغِبْتَ إلى كثيرٍ من الناس عندنا ـ ممن يستطيعون القيامَ بعظائم الأعمال، التي يعود نَفْعُها على الوطن وأبنائِه ـ أن يقوموا بأمر من الأُمور النافعة، لاعتذرَ عن ذلك بما لا يُقْبَل من حُجَّة، وما لا يُؤْبَهُ له من اعتذار[٧].

ما عُذرُ مَنْ حُجَّتُهُ اليأس من نجاح المشروعاتِ، وبُرهانُهُ صُعوبةُ نجاحِ الأعمال؟!

ما ذلك، لعَمْرُ الحقِّ بِحُجَّة، وما على قولِهِم أُثارةٌ[٨] من برهانٍ صحيح.

ولكنْ هو اليأس. قاتلَ الله اليأسَ، وأقالَ اليائسين عَثَراتِهم[٩]، وأناف بِهِم على يَفَاعِ الأمَل[١٠]، وأخذ بأيديهم إلى صالح العمل.

إنَّ اليأْس قد تمكّنَ من القلُوب إلّا أقلَّها، واستحكمت[١١] حلقاتُهُ في النفوس، غيرَ نَفْسٍ قد تداركها الله بِبصيصٍ[١٢] من نورِ الآمال، فأدركت

---

(١) الأعباء: الأحمال الثقيلة، ومفردها عبء.
(٢) استبطأ الشيء: وجده بطيئاً.
(٣) يعتوره: يصيبه وينزل به مرة بعد أخرى.
(٤) العقبات: جمع عقبة، وهي الصعوبة، وأصلها: الطريق الصعب في الجبال.
(٥) منقادة: طائعة.
(٦) مقوض: مهدم.
(٧) لا يؤبه به: لا يعبأ ولا يلتفت إليه.
(٨) أُثارةٌ: قليل، وأصلها البقية من العلم تؤثر.
(٩) أقال عثرته: نهض به منها.
(١٠) أناف بهم: رفعهم ـ واليفاع: التل المشرف، أو ما ارتفع من الأرض.
(١١) استحكمت: تمكنت.
(١٢) البصيص: اللمعان والبريق.

مَغَبَّةَ المآل[١] وسَعت إلى تحسين الحال، لتَجْنِيَ ثمراتِ الاستقبال.

فلا تكونوا، أيُّها الناشئون، من اليائسين، الكسالى الخاملين.

فما اليأسُ إلَّا موتٌ في الحياة، وشقاءٌ بعدَ الموت.

فاذبَحوا اليأس، وقَوُّوا البأس[٢]، تكونوا من المُفلِحين.

---

(١) المغبة: العاقبة ـ والمآل: المرجع والمصير.
(٢) البأس: القوة والشدة.

الـرجـاء

لولا الرَّجاءُ لما سعى ساعٍ نحو أُمنِيّة[١] ولا دعا داعٍ إلى وطنيَّة، ولكانت الحياةُ أضيق من جُحْرِ الضَّبِّ[٢]، وأثقلَ على العاتق من القُيود والأغلال[٣].

ما رأيتُ أحداً يعمَلُ، إلَّا وهو يعتقِدُ أنَّ لعَمَلِهِ أثراً تُحمَدُ مَغَبَّتُهُ[٤]، وتُرجى فائدتُه. ولا فَرْقَ بَيْنَ أن تكُون الفائدةُ خاصَّة بالعامل، أو عامّةً شاملة، يعودُ خيرُها على مجموعِ الأُمة التي ينتفعُ بخيراتها، ويَحْيا في بِيئتها[٥].

غيرَ أنَّ هُناكَ أمراً، هُوَ كُلُّ الأمر:

ذلك أنَّ قوماً لا يَعْمَلون إلَّا إذا اعتقَدوا جِدَّ الاعتقادِ أن عملَهُم مُثْمِرٌ لا محالةَ، فإن لمحوا شُبهةً في نجاح العَمل، ولو كانت أوهى من بيت العَنْكَبوت، أحجَموا[٦] عن الإقدام، وادَّرعوا بالأوهام[٧]. وليس ذلك من دأْبِ الحازمين[٨] ولا من خُلُقِ العامِلين.

وما الداعي إلى إحجامهم إلَّا ضَعْفُ الرَّجاءِ في نفوسهم. وهو مَرَضٌ من أمراضِ النَّفس يجبُ أن يُداوى بإماتة اليأس فإنهُ داءُ الاجتماع، وجُرثُومةُ العُمران الموبوءَة[٩]. فَقْدُ الرَّجاءِ داءٌ سارٍ في جسم مُجتمَعِنا لذلك ترى العاملين قَليلين، والسُّعَداءَ في حياتهم نادرين، وقد شَمِلَتهم الحسَراتُ وحاطتهم من

---

(١) الرجاء، الأمل ـ الأمنية: ما يتمناه الإنسان، وجمعها أماني.

(٢) جحر الضب: مأواه. والضب: حيوان بري كفرخ التمساح الصغير.

(٣) العاتق: موضع حمالة السيف من الكتف، والأغلال: القيود، والمفرد غل.

(٤) المغبة: العاقبة.

(٥) البيئة: المنزل والموطن.

(٦) أحجموا: تأخروا.

(٧) ادرع الدرع وادرع بها: لبسها.

(٨) الدأب: العادة ـ والحازم: من يضبط أُموره ويأخذ منها بالثقة.

(٩) الجرثومة: النسمة التي يسمونها المكروب ـ والموبوءة: التي فيها الوباء والداء.

شقاءِ الحياة النَّكَبات[١]، ولو عَقَلُوا لَطَرحوا بهذا الخلُق الشَّائِن الأرض[٢] واستمسكوا بعُرى الرَّجاءِ[٣] وأقدَموا على العمل إقدامَ الأشِدَّاءِ، الذين يَرَوْنَ أنَّ في اليأس الدَّاءَ، وفي الرَّجاءِ الشِّفاء.

وبعدُ، فإنَّ هناكَ قوماً لا يُثَبِّطُ[٤] هِمَمهُم بُعْدُ الغاية التي يقصِدون إليها، ولا يَحولُ، بينهم وبينَ ما يَرْجون، ما يَعْتَرِضُ رجاءَهم، ويُصادِمُ آمالَهم، بل يندفعون اندفاعَ القَضاءِ المُنْزَلِ، ويُقدِمونَ إقدامَ الأتيِّ المُرْسَلِ[٥] لا يلويهِم عن أمانيهِم لاوٍ[٦]، ولا يَثْنِيهم ثانٍ، وأُولئِكَ هُم القومُ حقاً، وبهِم تَحيا الأُمة.

هذه الفِئةُ النَّاهضةُ، تَعْلَمُ حَقَّ العِلم، أَنَّ رجاءَ الأعمالِ داعيةُ الإقدام عليها، وسببُ تَحقيق حُصولها، فلا يُقْعِدُهم عنها ضَعفُ الأمل، ولا ضآلَةُ نُوره[٧].

هي تعتقدُ اعتِقاداً لا يَشوبُهُ شَكٌّ[٨]، ولا يُخالِطُه رَيْبٌ، أَنَّ الحياةَ معَ اليأس موتٌ، وتقولُ مع القائل: «ما أضيقَ العيشَ لولا فُسْحة الأمل».

فاجعلوا، أيُّها النَّاشئون، الرَّجاء شِعارَكُم، والأملَ دِثارَكُم[٩]. واترُكوا تَثْبيطَ المُثَبِّطين، ولَيَّ اللَّاوين، وثَنْيَ الثَّانين[١٠]. وكونوا منَ الرَّاجين الآملين، الساعين العاملين. والله لكم مُعين.

---

(١) النكبات: المصائب.

(٢) الشائن: العائب.

(٣) العرى: جمع عروة: وهي كل ما يوثق به ويعول عليه. وأصلها: مقبض الدلو والكوز ونحوهما، وما يدخل فيه الزر من القميص وغيره.

(٤) لا يثبط: لا يعوق ولا يؤخر.

(٥) الأتي: السيل يأتي من بعيد.

(٦) يلويهم: لا يثنيهم ولا يصرفهم، وماضيه لوى، ومصدره اللي، واسم الفاعل اللاوي.

(٧) ضآلة النور: ضعفه وقلته.

(٨) لا يشوبه: لا يخالطه.

(٩) الشعار: العلامة، وثوب يلبس تحت الدثار ـ والدثار: ثوب يلبس فوق الشعار.

(١٠) الثني: مصدر ثناه عن الأمر يثنيه، أي صرفه عنه.

الـجـبـن

بَحثتُ في طبائع البشَر، فلم أجِدْ خلُقاً من الأخلاق الدَّنيئَةِ، أدنى إلى الصَّغار[1] وأقرَبَ إلى الموتِ في الحياة، منَ الجُبْن.

ذلك الخُلُقُ، ما تَأَصَّلَ في نُفوس قوم إلَّا ضَرب عليهم الذِّلَّةَ والمَسكَنة[2] فباءوا بالوضاعة[3] والخمول، ثم بالانحلال فالموت.

يُداهِمُ[4] الامةَ العَدوُّ، فتَجْبُنُ عن صدِّ غاراته وتفْرَقُ من مُنازَلته[5] بما تَرَبَّتْ عليه نُفوسُ أفرادها من الجُبنِ، فَيجوسُ خِلالَ الدِّيار[6]، ويَكْتَسِحُ[7] البلَاد، ويَسْتَعْبِدُ الجماعاتِ والأفراد، فلا يُرى لهُ مِن صادٍّ، ولا لأفاعيله[8] من رادٍّ.

ويقوم فيها رَهْطٌ[9] أُولُو فَساد، فلا يَجِدون لهم أحداً بالمرصاد[10] فَيُهلِكُونَ الحَرْثَ والنَّسْل[11]، ويَجْعَلُون الأمة كالحيوانات العُجْمِ، ولولا داءُ الجبن لردتهُم على أعقابِهِم خاسرينَ وضربَتْهُم ضربةً لا تقوم لهم بعدهَا قائمةٌ.

---

(١) أدنى: أقرب ـ والصغار: الذل والضيم.

(٢) تأصل: تمكنت أصوله وثبتت ـ والمسكنة: الضعف والذل والفقر.

(٣) باءوا: رجعوا ـ والوضاعة: الخسة والانحطاط.

(٤) يداهم: يأتي على حين غفلة.

(٥) تفرق: تخاف وتهاب.

(٦) يجوس خلال الديار: يدور فيها بالعبث والفساد.

(٧) يكتسح البلاد: يستولي عليها ويأخذها.

(٨) الأفاعيل: جمع أفعال. ومفرد الأفعال فعل. وأكثر ما تطلق الأفاعيل على الأفعال المنكرة.

(٩) الرهط: ما دون العشرة من الرجال. ورهط الرجل: قومه وعشيرته.

(١٠) المرصاد: الطريق، والمكان يرصد فيه العدو.

(١١) الحرث: الزرع ـ والنسل: الخلق والولد والذرية.

فالسُّكوتُ على عَملِ من يُريدُ بالأُمَّةِ السُّوءَ خِلَّةُ[١] الجُبَناءِ، ومناهضَةُ[٢] الظَّالمِ من دلائل حياةِ الأمَّة، فإنَّ حياتَها بما يَنْبَغُ فيها مِنَ الشُّجعان[٣].

قبيحٌ، وربِّ الكَعْبة، أن يقوم بيننا الجاهلُ في زِي العُلماء، والفاجرُ في مَظْهر الأتقِياء، والخاملُ في صورة النُّبهاءِ، والعاجِزُ في هيئةِ القُدَراءِ[٤] والمَيْتُ في لباس الأحياءِ.

وأقبَحُ من ذلك أن نُسَلِّم لهم هذه الدَّعوى رئاءً[٥] ونِفاقاً، طَمَعاً في جَرِّ مَغنَمٍ أو لخَوَرٍ[٦] في النَّفس، وضَعفٍ في الأخلاق.

وأشدُّ قُبحاً أن ندافعَ عن الظالم ومن يريدُ بالأمةِ الشرَّ، ونَصِفهُ بالخِلال الطَّيِّبَة، وحُسنِ النية وصدقِ العمَل.

إن مثلَ هذا الخُلُقِ الشَّائن[٧] ـ الذي مَصدرُهُ الجُبنُ ـ غِشٌّ للأُمة، وتغْريرٌ بها[٨]، لأنها تستسلم إلى من يكون القاضي على حياتها، والهادمَ مباني اجتماعِها والمُقوِّضَ[٩] أركانَ أخلاقِها.

فأُعيذُكم بالله، مَعشَر النَّاشئين، أن لا تكونوا من الجُبناء، السُّفَهاءِ الأدنياء، فإن الجُبنَ داءٌ أيُّ داء!

عَوِّدوا أنفسَكُم الشَّجاعة، تعتادوا الإباءَ والشَّمَم[١٠].

إن الجُبنَ قد ضَرَّ بالأمة، حتى جعلها في أسفلِ الدَّرَكات[١١]، فسَطا عليها

---

(١) الخلة: الخصلة والخلق وجمعها خلال.
(٢) المناهضة: المقاومة.
(٣) نبغ الشيء ينبغ: ظهر وبابه نصر وقطع ودخل.
(٤) القدراء: جمع قدير وقادر.
(٥) الرئاء: التظاهر بخلاف ما في الباطن.
(٦) الخور: الضعف، والفتور، والجبن.
(٧) الشائن: العائب.
(٨) غرر به تغريراً: عرضه للهلكة.
(٩) المقوض: المهدم.
(١٠) الإباء: الامتناع من كل ما يشين ـ والشمم: الأنفة وعزة النفس.
(١١) الدركات: جمع دركة وهي المنزلة السافلة، وهي في الأصل للنازل كالدرجة للصاعد.

الجائِر[١] واستبدَّ بأمرها الجاهل وغرَّرَ بها الفاجر. فإن دامت الحَال، ساء المآل[٢].

فلا تأْخُذكم في الحقِّ لومةُ لائم، ولا تُرْهبكِم سَطوةُ ظالم، فإن في الجُبنِ الموت، وفي الشجاعة الحياة.

إنَّكم ستكونونَ غداً آباءً، فكونوا لأبنائِكُم قُدوةً صالحة تَحيَ بكُم الأُمةُ حياةَ السُّعَداءِ.

(١) سطا: صال ووثب وقهر ـ والجائر: الظالم.

(٢) المآل: المرجع والمصير.

التهور[1]

إذا كان الجُبْنُ خُلقاً سافلاً، ومَثلَبةً[2] لِلجبان عظيمة، فالتهوُّرُ لا يقِلُّ عنهُ مَنقصةً، لأنَّ في كلا الخُلُقَيْنِ ضرراً لاحقاً بالإنسان.

الجُبنُ في الأعمالِ داعيةُ الإخفاقِ فيها[3] والتَّهوُّرُ في الإقدام عليها، قَبلَ التَّروِّي، سببٌ لعدم التوفيق أيضاً.

رأيْنا جماهيرَ المتَحمِّسين يندفعون في أمْرٍ من الأُمور، ثمَّ لا يلبثون[4] أن يرجِعوا بخُفَّي حُنين[5]، فلا يُوفَّقُون فيما اندفعوا فيه وإنَّ هِممهم لَتَبْرُدُ بعد قليلٍ من تحَمّسهم.

ما سرُّ ذلكَ؟

إنَّ السِّرَّ واضحٌ لكُلِّ مُفكر: وذلك أن كلَّ عَملٍ من الأعمال، منْهُ ما يكون، ومنه ما لا يكون. فالعاقِلُ من يَتَرَوَّى في الأمر قبلَ الإقدام عليه، فإن رأى أنّه ممَّا لا يكُون لم يُضيِّعِ الوقتَ عبثاً في مُحاولة إيجادِه.

التَهوُّرُ ضارٌ. وهو كالجُبن في عدَمِ حُصول الفائدة منه.

فإن رأيت رجلاً جارَ عن القصد[6] واتَّبعَ غير سبيل الرُّشد، فأحجمتَ عن إرشاده[7]، وجَبُنتَ عن إبداءِ النَّصيحة له، ظلَّ سائراً في طريقِ ضَلالِه، فكذلك

(١) التهور: الوقوع في الأمر بلا مبالاة.

(٢) المثلبة: العيب والمنقصة والمسبة.

(٣) الإخفاق: عدم الظفر بالمطلوب.

(٤) لا يلبثون: لا يمكثون.

(٥) رجع بخفي حنين: مثل يضرب لمن رجع خائباً.

(٦) جار عن القصد: عدل عنه ومال ـ والقصد: استقامة الطريق، والتوسط في الأُمور، وهو نقيض الإفراط فيها.

(٧) أحجمت: تأخرت.

إن أرَدتَ أن تصرفَهُ بالشدَّةِ، وتمنعَهُ بالجبهِ والقسْوةِ[١] فلا يُعيرُ زجرَكَ أُذُناً صغْواءَ[٢]، بل رُبَّما تمادى في عنادِهِ وازداد في طُغْيانِه[٣]، فتضيعُ بذلكَ الفائِدَةُ التي كنتَ تَتوخَّاها[٤] والنَّتيجَةُ التي تَنشُدها[٥].

التَّهوُّر سِرٌّ عظيمٌ من أسرار الإخفاق في الأعمال[٦] وإليه يَرجِعُ معْظمُ الأسبابِ في ضَياعِ ثمراتِ مجهوداتنا وإفلاتِ الصَّيد من يَدِنا.

فاتَّقِ، أيُّها الناشئُ، التّهوُّرَ، فإنه مدعاةُ الخَيبَة[٧]، وتَجنَّبِ التَّسرُّع، فإن مغبَّتَهُ الزَّلَلُ[٨].

وَكُنْ أُمَّةً[٩] وسطاً[١٠] تكُن من المُفلحين.

---

(١) الجبه: الشدة، وأصل معناه ضرب الجبهة.
(٢) الزجر: المنع والانتهار ـ وصغواء: مصغية.
(٣) الطغيان: مجاوزة الحد.
(٤) تتوخاها: تتحراها وتسعى إليها وتتطلبها.
(٥) تنشدها: تطلبها.
(٦) الإخفاق: الخيبة.
(٧) مدعاة الخيبة: السبب فيها.
(٨) المغبة: العاقبة ـ والزلل: السقوط.
(٩) الأمة: الجماعة تجمعها حال واحدة. وإنما وصف به الناشئ هنا رجاء أن يكون أُمة بنفسه إن شاء الله.
(١٠) وسطاً: معتدلاً في الأمور.

الشجاعة

مِلاكُ[1] النَّجاحِ في الأعمال أن يكُون في نفس العاملِ شجاعَةٌ تدفعُه إلى العَمل، فلا يَرجعُ عنه حتى ينالَ ما يريدُ.

وما أفلَحَ العاملونَ إلَّا بهذا الخُلُق الشَّريف، فهو يُمكِّنُ المُتخَلِّقَ به من ناصية[2] خَطيرِ الأُمور[3] حتى تُلْقِيَ إليه صعابُها بالمقاليد[4].

الشَّجاعة: هي الحدُّ الوسطُ بينَ رَذيلَتي الجُبنِ والتَّهوُّر، ففي الجُبن تفريطٌ[5] وفي التَّهوُّرِ إفراطٌ[6]، وفي الشّجاعة السَّلامةُ.

الشّجاعةُ: أن تُقدِمَ حيثُ ترى الإقدامَ عَزماً، وتُحجِمَ[7] حيثُ تَرى الإحجامَ حزماً[8].

والشّجاعةُ قسمان وهيَ: شجاعَةٌ أدبيَّةٌ وشجاعَةٌ مادِّيَّة، وكلتاهُما من ضروريَّاتِ الحياة.

فالثَّانيةُ يَدْفعُ بها المَرْءُ عن وطنِهِ وعن نَفْسهِ عوادي[9] من يُريدُ بهما السُّوء ويُكافِحُ الأعداءَ[10] في سبيل تعزيز الأُمَّة إلى أن يقضيَ الله أمراً كان مفعولاً،

---

(١) ملاك الشيء: نظامه وقوامه الذي به يقوم.
(٢) الناصية: مقدم الرأس، والتمكن من ناصية الأمر: كناية عن الاستيلاء عليه.
(٣) الخطير: العظيم.
(٤) المقاليد: المفاتيح، ومفردها مقلاد.
(٥) التفريط: التضييع والتقصير.
(٦) الإفراط: مجاوزة الحد.
(٧) تحجم: تتأخر.
(٨) الحزم: ضبط الأمر والأخذ منه بالثقة.
(٩) العوادي: النوازل.
(١٠) يكافح: يقاتل، والمكافحة: استقبالك العدو في الحرب وجهاً لوجه، وليس دونكما ترس أو غيره.

فإن انتصرَ ألبَسَ الوطنَ مَطارِفَ الشَّرَفِ[١] وحَلّى جِيدَهُ[٢] بعقود الفَخْرِ، وإن يُوَفَّق فيما قَصَدَ إليه كان له أجرُ العاملِ المُخلِص.

والأولى يَرُدُّ بها الظالمَ عن ظُلمهِ والغاويَ[٣] عن غيِّهِ، ويُرْشِدُ الأُمَّةَ، بالعِظَةِ النَّاجِعةِ[٤]، إلى السَّبيلِ القَويمةِ لتسلكَها والطَّريقِ اللاحب[٥] لتمشيَ فيه.

فإن فُقِدَت هذه الشَّجاعةُ، تمادى الجائِرُ[٦]، وازدادَ ضَلالُ الضَّالِّ، ومشَت الأمّة في غيرِ مَنهجِ الصَّواب[٧]، فكانت العاقبَةُ شرًّا.

وإن اضمحلَّت تلْكَ[٨] كانت البلادُ نَهباً مُقَسَّماً يُصاح في حَجَراتِها[٩]، فلا يُلفى للصَّائح مُسكِتٌ، ويُعاثُ[١٠] في أكنافها[١١] فلا يُرى للعابِث من رادٍّ، وهناكَ الطَّامَّةُ الكُبرى[١٢] التي تَجْعَلُ أَفْرادَ الأُمةِ عَبيدَ العصا، والبلِيّةُ العُظمى التي تَجْتاحُ[١٣] مُميزات تلك الأمّة وتقضي على حياتها الاستقلاليَّة، حتى تجعلَها كأمسِ الدابِر.

هذا، إن جَبُنَتِ الأُمَّةُ جُبناً معنويًّا أو ماديّاً.

وإن تهوَّرَت في الدِّفاع، ففي الغالب أن يُصيبَها ما أصابها في حال جُبنها،

---

(١) المطارف: جمع مطرف ـ بكسر الميم وضمها وفتح الراء ـ وهو رداء من الحرير مربع ذو أعلام.
(٢) الجيد: العنق.
(٣) الغاوي: الضال.
(٤) الناجعة: النافعة.
(٥) اللاحب: الطريق الواضح المسلوك.
(٦) الجائر: الظالم.
(٧) المنهج: الطريق الواضح.
(٨) اضمحلت: ذهبت وانحلت وتلاشت. والإشارة بتلك إلى الشجاعة المادية.
(٩) الحجرات: بفتح الحاء والجيم: النواحي، والمفرد حجرة بفتح الحاء وسكون الجيم وقولهم: دع عنك نهباً صيح في حجراته ـ هو مثل يضرب لمن ذهب من ماله شيء ثم ذهب ما هو أجل منه وأعظم.
(١٠) يعاث: يفسد، والعائث: المفسد.
(١١) الأكناف: الجوانب والنواحي والمفرد كنف، بفتح الكاف والنون.
(١٢) الطامة: المصيبة التي تطم، أي تقوى حتى تتغلب.
(١٣) تجتاح: تستأصل وتمحو.

لأنها إن أقدمت على المصادمة، قبل أن تأخذَ للأمر أُهبَتهُ[١] وللكفاح عُدَّتهُ، كانت النتيجَة شرًّا أيضاً. فإن قِيلَ: إن كان لا بدَّ من أحد أمرين: التَّهوُّر أو الجبْن، فأيُّهُما خَيرٌ للأُمَّة؟

فالجوابُ على هذا: أن ليس وراء الجُبْنِ خَيْرٌ قَطُّ، وأما بالتهوّر فقد ينالُ صاحبُهُ ما يُريد.

والسَّلامَةُ من ذلكَ أن تُربَّى في الأمّة روحُ الشَّجاعة، فهي الحِصنُ الحصين، والمَعْقِلُ[٢] الأمين.

فبالشّجاعة، مَعشرَ النَّاشئين، تَخلَّقوا، وبحبلِها اعتصموا، ولا تدعوا لمرَض الجُبنِ، وإبليسِ التَّهوُّرِ، إلى قُلُوبكُم سبيلاً، فإن الجُبنَ من البلادة، والتّهوُّرَ من الحُمق، والشجاعةَ من أخلاق المؤمنين.

---

(١) الأُهبة: العدة.
(٢) المعقل: الملجأ.

المصلحة المرسلة[1]

دخلَ أعرابيٌّ على هشام بن عبد الملك، فقال: «يا أمير المؤمنين، أتَت علينا ثلاثةُ أعوام. فعامٌ أذابَ الشحم، وعامٌ أكلَ اللحم، وعامٌ انتقى العظم[2]، وعندكم فُضولُ أموال[3]، فإن تكن لله فبثُّوها في عباد الله[4] وإن تكن للناس فلِمَ تُحجبُ عنهُم[5]؟! وإن كانت لكم فتصدَّقوا بها، إنَّ الله يُحبُّ المتصدِّقين». قال هشام: «هل من حاجة غير هذه يا أعرابِيُّ؟» قال: «ما ضربتُ إليكَ أكبادَ الإبل[6]، أَدَّرِعُ الهجيرَ[7] وأخوضُ الدُّجا[8]، لخاصٍّ دون عامّ».

فأمرَ له هِشامٌ بأموالٍ فُرِّقَت في النَّاس، وأَمَرَ للأَعرابيِّ بمالٍ فَرَّقَهُ في قومه.

إنَّ لهذا الأعرابيِّ، أيُّها النّاشئ، نفساً كبيرة، ووجداناً صحيحاً، وغيرةً على قومه وغيرِ قومه عظيمة، وذلك ما دَعاهُ ألاَّ تكونَ له الأَثَرَةُ[9] بالخير دونَ سِواهُ، لأنَّهُ عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنَّ حياة الفَرد حياةُ السَّعادةِ، وقومُهُ في الشَّقاءِ لَهيَ حياةُ الذُّلِّ وعيشةُ البؤْسِ[10].

كَيْفَ يَرضَى العاقلُ أن يكونَ في بُحبوحَةٍ من الخير[11] ومَن يُحيط به من الناس في ضَنكِ العيش[12]!؟

---

(١) المصلحة المرسلة: هي التي يقصد بها النفع العام.
(٢) انتقى العظم: أخرج نقيه أي مخه، وهو ما في داخل العظم من الدسم.
(٣) فضول الأموال: ما زاد منها عن الحاجة، والمفرد فضل.
(٤) بثوها: فرقوها.
(٥) تحجب: تمنع.
(٦) ضربت إليك أكباد الإبل: رحلت إليك من مكان بعيد.
(٧) أدرع الهجير: ألبسه كالدرع ـ الهجير: شدة الحر.
(٨) الدجا: الليل. وادراع الهجير وخوض الدجا مجاز عن السير فيهما.
(٩) الأثرة: الاستئثار والاستبداد.
(١٠) البؤس: الشقاء والشدة.
(١١) البحبوحة: السعة، ووسط الشيء.
(١٢) ضنك العيش: ضيقه.

بل كَيف لا يأْنَفُ[١] أن يرى الشّقاءَ قد عمَّ الأمّة، وهو لا يعبأُ[٢] بما يعتريها من الآلام، ولا يألَمُ لما في أفئدتها من السهام[٣]؟!

إنَّ ذلك لمن ضَعفِ الشُّعور، وموتِ الوجدان، وفسادِ الأخلاق! وإنَّ من يرضى بذلك، ولا يَشْعُرُ بما يُصيبُ المجموع، لهوَ من البهائم، التي لا تعرِفُ من الحياة إلا اللّهوَ والطّعام والشّراب.

وأكثرُ بهيميَّةً منهُ وأشدُّ وطأَةً[٤] على الحياة الاجتماعية، من يسْعَى لمصْلَحتِهِ الشّخصيَّةِ سَعْيَها، وهو يعلَم أنّها السَّهمُ النافذُ في صميم المصلَحَةِ العامَّة[٥] والقضاءُ المبرَمُ[٦] على حياة المجموع!

إنَّ مثلَ هؤلاءِ الناس عبءٌ[٧] ثقيلٌ على المجتمع، ومرَضٌ وبيلٌ[٨] في جسم الاجتماع.

ألا يَدْري من كان على هذه الشاكِلَةِ أنَّ عَملَهُ يعودُ عليه بالخُسْران!

ألا يَعلَمُ أنهُ فردٌ من أفراد الأمّة التي سعى للضررِ بها! ألا يفهمُ أنَّ ضرر المجموع يعود على الفرد!

أم يَظنُّ أنه ناجٍ من سوء عمله مُتفصٌ[٩] من عاقبة شرِّه!

إنْ ظَنَّ ذلك، فقد ظنَّ باطلاً، لأننا لم نرَ أحداً يَضُرُّ الأُمَّةَ لمنفَعة نفسه إلَّا عاد عليه عمله بالضرر المبينِ. والأمثلةُ على ذلك أكثرُ من أن تُحصى.

ألا، إن هناك قَوماً قد ضرب الله بينهم وبين الحقِّ بسورٍ ظاهرُهُ فيه الرَّحمةُ، وباطنُهُ من قِبَلِه العذابُ[١٠]، فَهُمْ يَعملُون على خضدِ شَوْكةِ

---

(١) لا يأنف: لا يستنكف.
(٢) لا يعبأ: لا يبالي.
(٣) السهام: النبال، والمفرد سهم.
(٤) الوطأة: الضغطة والدوسة، ويراد بها الشدة.
(٥) الصميم: العظم الذي به قوام العضو.
(٦) القضاء المبرم: الذي لا مردَّ له.
(٧) عبء: حمل.
(٨) وبيل: شديد.
(٩) متفص: متخلص متملص.
(١٠) من قبله: من جهته.

الأمّة[١] وإضعافِ بأسها[٢] وإضاعة حقِّها، وإبقائها في بيئة الخُمول والاستكانة[٣] وما لهم في ذلك من فائدة، وليس لهم من عائدة[٤] إلا ما ينالهم من ثناء حاكم، أو بشاشته في وجوههم! وإن نالتهُم فائدَةٌ مادِّيَّة، فهي لا تُسْمنُ ولا تُغني من جوع. وإنما هُو النِّفاق والرّياء، يدفعان بمثلِ هؤلاءِ الناس إلى تحبيذِ أعمال أهل الأثرة. وليتهُم يحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعاً، بل هُم يعلمون كلَّ العِلمِ أنَّهم وراءَ إسْقاط الأُمَّة ساعون ونحو ما يُخمِلُ ذكرها سائِرون، وعلى ما يميتُها عاملُون، فهُم الضّالون المُضِلُّون، وأُولَئك هُم شرُّ البَرِيَّةِ[٥].

فتجَنَّبوا، مَعْشرَ النّاشئين أعمالهم، وَقُوا أنفُسَكُم مَعَرَّةَ أفعالهم[٦] ولا تكونوا من الفِراسيِّينَ[٧] القائِلين:

مُعَلِّلَتي بالوصْلِ، والموتُ دونَه، إذا مِتُّ ظمآناً فلا نَزَلَ القَطْرُ

بل كونوا من المعَرِّيين[٨] المُنادين:

فلا هَطَلَتْ عليَّ ولا بأرْضي سحائِبُ ليس تَنْتَظم البِلادا[٩]

تكونوا مِمَّن هُدِيَ الصِّراطَ المستقيم[١٠].

---

(١) خضد الشوكة: كسرها وقطعها.
(٢) البأس: القوة والشدة.
(٣) البيئة: المنزل ـ والاستكانة: المسكنة والذل.
(٤) العائدة: المنفعة وما يوصل به الإنسان من معروف.
(٥) البرية: المخلوقات.
(٦) وقوا: احفظوا ـ والمعرة: السوء والإثم والجناية.
(٧) المراد بالفراسيين دعاة المنفعة الشخصية، نسبة إلى أبي فراس الحمداني الشاعر المشهور ابن عمّ سيف الدولة قائل هذا البيت.
(٨) المراد بالمعريين دعاة المنفعة العامة، نسبة إلى أبي العلاء المعري الشاعر الفيلسوف العربي الشهير قائل هذا البيت.
(٩) السحائب: الغمام الممطر والمفرد سحابة ـ وتنتظم البلاد: تعمها وتنفذ إلى جميع أقطارها.
(١٠) الصراط المستقيم: الطريق المعتدل الذي لا عوج فيه.

الشـرف

نَظَرْتُ في أخلاق النَّاس، ونقَّبْت عن نُفوسِهِم، فلم أرَ نَفْساً لم تَدَّعِ الشَّرَف.

سَل العالِمَ والجاهِلَ، والصّالحَ والطّالح، والمُخْلِص والمُنافِق، وكُلَّ مَنِ اتصفَ بِخَلَّةٍ[١] حَميدة أو ذَمِيمةٍ، يُجبْكَ أنَهُ شريفُ النَّفس.

لِكلِّ إنسانٍ أنْ يَدَّعيَ هذه الدَّعوى، غير أنهُ ليس لكلِّ إنسانٍ أن يُصدِّقها، ما لم يحقِّق الخبَرَ الخُبْرُ[٢]، وإلّا اختَلَطَ الحابِلُ بالنَّابِل[٣] والفارسُ بالرَّاجِل[٤].

يَزعُم كثيرٌ من الناس أن الشَّرف إنما هو بما عندَ الإنسانِ من الثَّرْوَةِ، وبقَدْرِ ما لَدَيه منها يختالُ عُجباً[٥] ويَميسُ فخاراً[٦]، فهوَ يَحتَقِرُ الضُّعفاءَ ويَزْدري الفُقراءَ.

ومن الغريب أن يجِدَ هذا الشَّريفُ الواهِمُ نُصَراءَ يرفَعون مِن مَقامه وأذلّاءَ يَسْجُدونَ أمامَ قَدَمَيْه. ورُبَّما لا يَنالهم من عملِهم هذا ما يستعينون به على سَدِّ عَوَزِهِمْ[٧] وإصلاح مَعايِشِهم. وإنما هو النِّفاق أو الذلُّ وما ذلك إلّا من فسادٍ في تربيتهِم ومَرَضٍ في أخلاقِهِم.

ولو يَعْلَمُ من يَدَّعي الشَّرَفَ ـ لِوُفور ثروتِه[٨] ـ أنهُ إنْ يَقْلِبْ لهُ الدَّهرُ ظَهْرَ

---

(١) الخلة: الخصلة، والجمع خلال.
(٢) الخبر بضم الخاء: الأخبار.
(٣) الحابل: الصائد بالحبالة وهي الشبكة ـ والنابل: الرامي بالنبل.
(٤) الفارس: الراكب الفرس ـ والراجل: الماشي على رجليه.
(٥) يختال: يتكبر ويتبختر.
(٦) يميس: يتمايل عجباً.
(٧) العوز: الحاجة.
(٨) الوفور: الكثرة.

المِجن[(١)]، ويُكشِّرْ لهُ الزّمانُ عن نابِهِ، فيُصْبح فقيراً بعد الغنى، محتاجاً بعد الثَّروة، يخْفِضْهُ[(٢)] من كان لهُ رافعاً، وينْأَ عنهُ من كان منهُ دانياً[(٣)] لأقلَع[(٤)] عن الفَخار، ولبسَ هذا الدِّثار[(٥)].

ويَظُنُّ آخرون أنَّ الشَّرَف هو ما أُوتي[(٦)] الإنسانُ من قُوةٍ في بدنه، فهو يَحتقر الضُّعفاءَ، وإن كان لديهم من العقلِ ما يَطولُون به الجوزاء[(٧)].

ولو عَلم أن الأسدَ أَجرأُ منهُ وأقوى، وأنَّ الجَمَلَ أصلَبُ عُوداً، وأضخمُ جِسْماً وأروَعُ هَيْئة[(٨)]، فهُما أولى منهُ بذلك، لَرَجَعَ عمَّا يَدَّعيهِ صاغراً، وتَركَ الفَخارَ بالقُوَّةِ والبطش.

ويخالُ قومٌ أنَّ الشَّرَفَ في أن يَشْفى المرء بِمرَض الأمّة، ويحيا بموتها، ويقوى بضعْفها، ويَرتفعَ بانحطاطها ويعزَّ بِذُلِّها، ويَمجُدَ بِسفالتها[(٩)].

ولو فَكَّروا قليلاً لعلِموا أنَّهُم مُخطِئون وفي غُرورهم[(١٠)] يعمَهون[(١١)]. فالشَّريفُ إنَّما يَشْرُفُ بِشرف الأمّة، ويحيا بحياتها، فإن هانَتْ هان وإن ماتَتْ مات.

إنَّ الشَّرفَ الصَّحيحَ، والمَجدَ الرَّجِيح[(١٢)]، لا يكونان إلَّا لِمنْ توفرت[(١٣)]

---

(١) قلب له ظهر المجن: تغير عليه أو أساء إليه ـ والمجن الترس. وهذا مثل يضرب لمن ساءت حاله بعد الإصلاح.

(٢) يخفضه: جواب الشرط، وهو: أن يغلب.

(٣) ينأ: يبعد ـ ودانياً: قريباً.

(٤) لأقلع: جواب.

(٥) الدثار: الثوب.

(٦) أُوتي: أُعطي.

(٧) يطولون: ينالون ـ والجوزاء: برج في السماء.

(٨) أروع: أعجب وأفزع.

(٩) يمجد: يشرف.

(١٠) الغرور: الباطل، وتزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب.

(١١) يعمهون: يتحيرون ويترددون في الضلال.

(١٢) الرجيح: الرزين.

(١٣) توفرت: كثرت واتسعت.

فيه المرُوءَةُ[١] والشَّهامَةُ[٢] وطهارةُ الوِجْدان، ونالَ قِسْطاً من العلم، ونَشَّط الدَّاعين إليه. فمنْ فعلَ ذلك فهُو ممن طابت سريرتُهُم[٣]، وزكَتْ بينَ الناس سيرتُهُم[٤].

هَيْهات[٥] أن يكونَ شريفاً ماجداً من كانَ جاهلاً سفيهاً يَزْدَري النُّبهاءَ ولا يُبالي العُقلاء، ولا يأبهُ للعُلَماءِ[٦] ويكْرَهُ لأُمته الارتقاء.

ليس من الشَّرَف والوجاهة في شيءٍ منْ يَسْتبدّ بمرافق الأُمة[٧] ويَسْتأثر بمنافعها[٨]، ويَحقِرُ مجموعَها[٩]، ويهدِمُ كِيانَها[١٠].

الشَّريفُ مَنْ يَخدُمُ الوَطَنَ خِدْمَةً صحيحَةً تُعْلي شأنَهُ وتَرْفَعُ من مكانته، ويَهُونُ[١١] في سَبيل إعزازه، ويَموتُ بُغْيَةَ إحيائِه.

هذا هوَ الشَّرَفُ الحقُّ، معْشَرَ الناشِئين، فاعتَصِموا بِحَبْله[١٢]، فإنهُ حَبْلُ الله المتين، والجأوا إلى حِصنِه، فإنهُ حِصْنُ الله الحَصين.

إنَّ الوطنَ يَدعوكم إلى خدمته، فأجيبوه، والأمّة باسطَةٌ إليكم أيدِيهَا، فمُدُّوا إليها أسبابَ النُّهوض[١٣]، وأعينوها منكم بقُوَّة، تحيَ بكم حياةً طَيِّبة، وتَرقَ إلى أعلى عِلِّيِّين[١٤].

---

(١) المروءة: النخوة، وكمال الرجولية، وهي مجموعة آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات.
(٢) الشهامة: الحرص على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذكر الجميل.
(٣) السريرة: ما يسره الإنسان ويكتمه خيراً كان أو شراً. وفلان طيب السريرة: سليم القلب صافي النية. والجمع سرائر.
(٤) زكت: طابت وصلحت ـ والسيرة: ما يسير عليه الإنسان من الأعمال.
(٥) هيهات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعد، مبني على الفتح، ويجوز بناؤه على الكسر أيضاً.
(٦) لا يأبه: لا يكترث ولا يبالي.
(٧) المرافق: المنافع.
(٨) يستأثر بمنافعها: يستبد بها ويخص بها نفسه دون غيره.
(٩) يحقر: يحتقر.
(١٠) كيان الأمر: ما يكون عليه.
(١١) يهون: يذل.
(١٢) اعتصموا: تمسكوا.
(١٣) الأسباب: الوسائل، وأصل معناها الحبال، والمفرد سبب.
(١٤) أعلى عليين: أعلى المراتب ـ وعليون: اسم لأعلى الجنة.

الهجعة واليقظة[1]

للأُمم، كَما للأَفراد، هَجَعاتٌ ويَقَظاتٌ: فتارةً تَتَغلَّبُ عليها الأُولى فتُخملُها، وطَوْراً تهيجُها[2] الأُخرى فتُنَبِّهُها. وقد كان هذان العاملان، ولم يزالا، في تنازُعٍ وخصام ولم يَكُنْ ولا يكون بينهما سكينَةٌ وسلام، ذلك لأنهُما ضِدَّان والضّدانِ لا يجتَمعان.

وإن لهذه الغَلَبَةِ أسباباً وعِلَلاً، رُبما اختلفت في الظّاهر، ولكنها مُتَّفقةٌ من حيثُ الحقيقةُ، إذ إنها تُنْتِجُ نتيجةً واحدة، هي تنبيهُ الأمّة أو إخمالها. ويَختلِفُ التّنَبُّهُ أو الخمولُ قُوَّةً وضَعْفاً باختلاف أسبابها المؤثرة في نفوس الأُمم، التي انتشرت فيها تِلْك العِلَلُ أو الأسباب.

أمَّا الأَسبابُ التي تَجعَلُ الأمّة خاملةً متقَهقِرةً[3] ساقطَةً فهِي كثيرَةٌ:

منها: جُمودُ كثير من علماء الأديان، ووقوفُهُم سَداً مَنيعاً أمام تَيَّارِ الأمّة المندفعة إلى التقَدُّمِ، لِتكونَ من كُبريات الأُمم الحَيَّة، ومنهم من يتخذون الدِّينَ وسيلةً لمآرِبهم وشَرَكاً[4] يَصطادونَ به عُقول العامَّة، لِيُرجِعوهم عن نُصرة المُصلحين، ومتابعَةِ عُلَماء الكَونِ والاجتِماع، فيُكفِّرونَ ويُفسِّقون، ويُحَلِّلونَ ويُحَرِّمون، ورُبَّما دِماءَ الأبرارِ يُبيحون[5] وما ذلك إلَّا نتيجَةٌ من نَتائجِ جَهلِهم أو غُرورِهم أو ضَعْفِ أخلاقِهِم، لو كانوا يعلمون.

---

(١) الهجعة: الغفلة وأصلها من الهجوع، وهو النوم ليلاً ـ واليقظة: التنبه، وهي بفتح الياء وسكون القاف، أما في الجمع فتفتحان.

(٢) تهيجها: تحركها.

(٣) متقهقرة: متأخرة راجعة إلى الخلف.

(٤) الشرك: المصيدة.

(٥) الأبرار: الأخيار المحسنون.

ومنها استبدادُ الرُّؤساءِ وأربابِ النُّفوذِ، وظُلْمُ الحُكّام واضطهادهم[١] من يُريدُ أن يَنهضَ بالأمّة من دَرَكَاتِ[٢] السَّفالةِ، وهُوى الجهْلِ[٣]، وأخاديد الخمولِ[٤] إلى مُسْتَوى[٥] الفضيلةِ والعلم والتَّنَبُّه.

وهناك أسبابٌ أُخَرُ لا يَسعُ المَقامُ ذِكرَها. وهي مَعَ ما تَقَدَّمَ من الأسباب، تُخمِلُ الأمّة، وتَسوقُها إلى مَجازِرِ[٦] الهوانِ والتَّأَخُّر.

فَتلْك هي حالَةُ الأمّة في هَجَعاتِها، وهذه هي الأسبابُ التي تَجعَلُها قيدَ سُلْطانِها[٧].

وأما حالَتُها في يَقَظاتِها، فهيَ على غير ما تَقَدَّمَ، لأنَّها تكون إذ ذاكَ، أمّةً رفيعَة الشأن، ساميةَ المَقام، عَزيزَةَ الجانِب، مَنيعَةَ الحمى[٨]، جَهْوَرِيَّةَ الصَّوتِ[٩]، مُمتدَّةَ السُّلْطة ولا تكونُ على هذه الحالَةِ إلّا إذا تَقَدَّمَتها أسبابٌ توصِلُها إلى الغاية التي ذكَرْناها.

وإنَّ هذه الأسبابَ كَثيرةٌ أيضاً:

منها نُبوغُ[١٠] أفرادٍ في الأُمَّة، يُؤْلِمُهُم بقاءُ أُمَّتِهم في الجهْل والخمول والسقوط فَيَبُثُّون[١١] في الأُمَّة روحَ الهمَّة والنَّفْرةِ مِّما يَضُرُّ بها ويوقدون فيها نار العزيمة والاستِعْداد لِمَعالي الأمور، حتى إذا تَهَيَّأ لهم ما يريدون، حَمَلُوا الحكومَة ورجالَ الاستِبداد بالأمر ـ من العُظماء والرُّؤساء وأرباب النفوذ ـ على

(١) الاضطهاد: القهر والإيذاء.
(٢) الدركات: جمع دركة، وهي المنزلة السافلة، وهي في الأصل للنازل كالدرجة للصاعد.
(٣) الهوى: جمع هوة وهي الحفرة العميقة، وما بين الجبلين.
(٤) الأخاديد: جمع أخدود، وهي الحفرة المستطيلة في الأرض.
(٥) المستوى: المستقر.
(٦) المجازر: جمع مجزر، وهو مكان الجزر، أي الذبح.
(٧) القيد: حبل ونحوه يجعل في رجل الدابة يمسكها، وفلان قيد فلان: أي هو في قبضته ـ والسلطان: السلطة والتسلط.
(٨) الحمى: ما يحميه الإنسان من شيء.
(٩) جهورية الصوت: مرتفعته، نسبة إلى الجهورة، والجهورة: العالي الصوت كالجهوري.
(١٠) النبوغ: الخروج والظهور في عظمة وشأن ـ والنابغة: العظيم الشأن.
(١١) يبثون: ينشرون. والبث: النشر.

تَغيير الحالةِ الاجتماعيَّة الفاسدة، واستِبدالِ غيرها بها. وبذلك تُزالُ البرازخُ[١] التي تَحُول دون تَرَقّي الأمَّة.

متى تمَّ لهم ذلك، أدركوا أنهم قد اجتازوا[٢] في سبيل الإصلاح عَقَبَةً ليسَت بشيءٍ بالنِّسْبَةِ إلى ما سَيَعْتَرضُهُم من العَقباتِ، لأنَّ إزالةَ الظُّلم والاستبدادِ، وتغْييرَ نِظام الاجتماع، لا يَكْفِيانِ لِرَفْع الأمّة، إن بَقِيتْ جاهلةً خاملَةً، فإنَّ جَهلَ الأُمَّةِ أَشَدُّ وطأَةً[٣] من ظُلْمِ الحُكومة، وإنَّ خُمولها عَقَبَةٌ كؤُودٌ[٤] في سبيل جَعْلِها أُمَّةً حيَّةً يُشارُ إليها بالبَنانِ[٥]. وهذهِ العَقَبَةُ أشدُّ اعتراضاً من عَقَباتِ المُسْتَبِدِّين، ورجالِ الدِّين الجامِدين.

ومتى أدركَ النَّابِغونَ من الأُمَّة ذلك فَكَّروا في الوسائِل التي تُزيلُ حِجابَ الخمولِ والجهل عنها، وما هي إلَّا إيقادُ نيرانِ الثّورةِ الأدبيَّة[٦] التي تَلْتَهِمُ[٧] أخلاقها الفاسدة، وعاداتِها الضَّارَّة.

ولا دَواء أنجعُ[٨] في هذه الثَّورة من انتشارِ الجرائد الحُرَّة الصَّادقَة التي لا تَبيعُ الشَّرَفَ والوِجدان بِدُرَيهِمات يأكُلُها أصحابُها ظُلْماً وسُحْتاً[٩]. ومن ذلك أيضاً انتشارُ الكُتُبِ النَّافعَة بين طَبقاتِ الأُمَّة. ورُبَّما لها في بعض الأحايين تأثيرٌ عَظيمٌ أشدُّ من تأثير الجرائد.

فعَلى المفكّرينَ أن يُكْثِروا من الكُتُبِ النَّافعَة، التي تُوقِظُ شُعورَ الأُمَّة، وتُنَبِّهُها من هَجَعاتِها، وأن يَعْضدوا الصَّحائِفَ الوطنيَّةَ الصَّادقَة، والمجلَّات

---

(١) البرازخ: الحواجز، والمفرد برزخ.
(٢) اجتازوا: قطعوا.
(٣) الوطأة: الشدة، والضغطة، والدوسة.
(٤) العقبة: الطريق في الجبل. والعقبة الكؤود: الشاقة الصعبة المرتقى.
(٥) البنان: الأصابع وأطرافها: والمفرد بنانة.
(٦) اقرأ العظة الآتية.
(٧) تلتهم: تبتلع.
(٨) أنجع: أنفع.
(٩) السحت: الحرام. أو ما خبث وقبح من المكاسب فلزم عنه العار كالذي يأخذ رشوة أو خداعاً ونحوهما.

المفيدَة النَّافِعَة، وذلك بترغيبِ الأُمَّة فيها والسَّعْي لتكثير سوادِ من يَبْتاعُها[١] لِتَسير الأُمَّة في سبيل المجد، وتَسْلُكَ طريقَ السَّعادة.

فتَنَبَّهوا رعاكُمُ الله، مَعْشَر النَّاشئين، ولا تكونوا من الخاملين، واقرءُوا من الصُّحُفِ أشدَّها وطنيَّة، ومن الكُتُبِ أسماها مَوضُوعاً وأُسلُوباً تكونوا من السُّعَداء.

(١) السواد: الجماعة، والعدد الكثير ـ ويبتاعها: يشتريها.

الثورة الأدبيّة

الأُمَمُ في حال مَرضِها الاجتماعيِّ، تكونُ حاجتها إلى إصلاح ما فَسَدَ فيها من الأخلاق، وتَقويمِ ما اعوجَّ من فُروعِ الاجتماع، أكثَرَ من حاجة المريض إلى الدَّواء.

يَمْرضُ إنسانٌ، فَيَلْجَأُ أهلُهُ وذووهُ إلى طبيب يَثقون به، فَيصِفُ له من الأدوية ما يَراهُ مُفيداً له.

وتَمْرضُ الأمّة جَمعاءُ، إلا من رَحِمَ ربُّك، فلا تَلْجَأُ إلى طبيب الاجتماع ليُداويَ أمراضَها، ويُخَفِّفَ أوصابَها[1] ويخلِّصَها مما أصابها.

وذلك ناشئٌ من أحد أمرين: إمَّا جَهْلِها بدائها، فتَظُنُّ ـ وهي على وشك الموت بما يَفْتكُ فيها من الدَّاء ـ أنها سليمةٌ من الأمراض، نَقيَّةٌ من الأوصاب، وإمَّا أنها تَدري كُلَّ الدّراية ما فيها من الآلام، وما يَعْتَورِها من الأدواء[2]، غير أنَّها لا ثِقَةَ لها بما يُحيطُ بها من الأطِبَّاءِ، أو أنها اعتراها[3] ما مَنَعَها التفكُّرَ في طَلَب الطبيب.

وتُرسِلُ الأمّةُ كَثيراً من أبنائها إلى مدارس الطب، ليَطُبُّوا[4] بعد تَعلُّمِهم، أجسامَها. ولا تَبعَثُ بأحدِ منهُم، إلَّا القَليل النَّادر، إلى مدارس الأخلاق والاجتماع، لِيُداووا، بعدَ تربيتهم، أخلاقَها، ويُهذِّبوا نِظَام اجتماعِها. وما ذلك إلا من فساد النُّفوس، التي تُقَدِّمُ الماديّاتِ على الأدبيَّات.

الأمّةُ في حاجةٍ إلى القسْمَينِ من هؤلاءِ المتَعلِّمين ولكنَّ حاجتَها إلى أطبَّاءِ

---

(١) الأوصاب: الأمراض، والمفرد وصب، بفتح الواو والصاد.
(٢) يعتورها: ينزل بها مرة بعد أخرى ـ والأدواء: جمع داء.
(٣) اعتراها: أصابها.
(٤) ليطبوا: ليداووا، طبه يطبه: داواه، وهو من باب: شده يشده.

الاجتماع، وحُكماءِ الأخلاق، أكثَرُ من حاجتها إلى مَنْ يُداوي أجسامها.

إنَّ مَرضَتِ الأمّة مَرَضاً وبيلاً فتّاكاً، فذلك لا يَقضي إلا على حياة عَشَرةٍ في الألف من مجموعها، ثُمَّ يكون الدَّاءُ دَواءً. وإن مَرِضَت مَرضاً اجتماعيًّا قَضى مَرضُها على تسْعةٍ وتسْعين في المئة. وأنتم تَرون، مَعشَر الناشئين، أن القضاءَ على حياة الأفراد أسهل من القضاءِ على حياة المجموع.

وبعدُ، فلا يُمكنُ شعباً من الشعوبِ أن يَنهض، إلا إذا كان بينَ ظَهْرانَيْهِ[١] من يُداوي أخلاقه، ويَدفَعُهُ إلى الترقّي، ويَهيجُ منهُ عاطفةَ التَّنَبُّه، ويُثيرُ فيه كامنَ المعالي[٢].

وبِقدْرِ ما لَدَيه من هؤلاء المداوين يكونُ مِقدارُ تَنبُّهِه أو خموله.

الأُممُ لا تَنهضُ إلا بترقية الأخلاق الفاضلة، واستِئصال[٣] كُلِّ خُلُقٍ فاسدٍ من نُفوسها، وتَهذيبِ نظامِ اجتماعها. ومتى تمَّ لها ذلك هانَ عليها كُلُّ شيءٍ بعدَه: كتَغيير أنظِمَتها[٤] السياسيَّة والاقتصادية[٥] والعُمْرانية.

ولا يُمكنُنا تَنمِيةُ الأخلاق[٦] العالية، وإصلاحُ ما اختَلَّ من قواعد الاجتماع، إلا بالثَّورة الأدبية، التي يَهيجُها في نفوس الأُمَّةِ أُولئك المصلحون من أطبَّاءِ الاجتماع، والأخلاق، رُوَيداً رُويداً، حتى تُسْتأصَلَ شأفاتُ[٧] الأخلاق الفاسدة، فَيَحُلَّ محلَّها صالحُ العادات.

الثورةُ الأدبيةُ: قيامُ أفرادٍ من الأُمة ـ حَسُنَت أخلاقُهُم، وصَفَت سرائِرُهم، وزَكَت أعراقُهُم[٨] ـ لِيُغيِّروا فيها حالتها الاجتماعية والخُلُقيَّة فيُهيبونَ[٩] بها

(١) بين ظهرانيه: في وسطه.
(٢) يهيج ويثير: يحرك ـ وكامن: مختبئ.
(٣) الاستئصال: قلع الشيء من أصله.
(٤) الأنظمة جمع نظام، ويجمع أيضاً على أناظيم ونظم «بضم النون والظاء».
(٥) السياسة: علم تدبير أمور الدولة والرعية ـ والاقتصاد: علم تنمية الثروة.
(٦) تنمية الأخلاق: تربيتها لتنمو نماء حسناً.
(٧) الشأفات: الأصول، والمفرد: شأفة.
(٨) زكت: طابت ـ والأعراف: الأُصول، والمفرد عرف.
(٩) يهيبون بها: يصرخون بها ويزجرونها.

لِتنْهض، ويُثيرونها لِتَترُكَ ما ألِفتهُ مِنَ العادات الضَّارَّة، والأخلاق المُنْحطَّة. ولا يزالون يَهِيجون ويتعَبون، ويَسْعون وينصبون[١]، حتى ينالوا ما يريدون.

والشَّرطُ كُلُّ الشرط أن تكون البداءَة[٢] بذلك حَسَبَ مُقتضى الحال حتى إذا استعَدَّت الأُمَّةُ لما هُو أرقى أفرَغوا ما لَدَيهم من جَعباتِ الأفكار الصحيحة، وكِنانات[٣] الآراء الصَّائبَة. وإلَّا كانتْ إثارتُها شرًّا من بقائِها على حالتها القَديمة.

وليَكُن إقدامهم على العمَل كإقدامِ الطَّبيب على مُداواةِ المريض. لا يَصفُ لهُ الطَّعام، إلا بعدَ أن يَنال من الصِّحة مَنالاً يُمكِّنهُ من تناوُلِهِ. حتى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ من الصِّحة، جَعلَه حُراً في تَناوُل ما لا يَضُرُّ بالأصِحّاء، فلْيَتنَبَّهْ إلى ذلك المرشِدون المصْلِحون.

الأُمَّةُ في حاجةٍ شديدة إلى الثَّورة الأدبية، لإصلاحِ حالها والنُّهوضِ بها من وَهْدةِ الانحطاط[٤]. وأنتم، مَعشَرَ النَّاشئين، أولئك الأطبَّاءُ الاجتماعيون، وسيكون بِيدكُم أمرُ الأُمَّة. وسَتوكَلُ إليكم إثارةُ أفكارِها، وبَثُّ[٥] الأَخلاقِ الصحيحة فيها.

فكونوا مُنذُ الآن، رجالاً حازمين. وضَعوا نَصب[٦] عُيونِكُم أنكُم ستكونون أطبَّاءَها النَّاصحين ومرشديها المخلِصين، ووُعَّاظِها العاملين تَكُنْ لكُم من الشاكرين.

(١) ينصبون: يتعبون.
(٢) البداءة: الابتداء.
(٣) الجعبة والكنانة: الوعاء. وأصلهما الوعاء الذي تكون فيه السهام.
(٤) الوهدة: الحفرة.
(٥) البث: النشر.
(٦) نصب عيونكم: أمامها، والنصب: الشيء المنصوب وهذا الشيء نصب عيني أي قائم في نظري.

الأمة والحكومة

شأن الأُمم شأن الأفراد: فالفَردُ المعْتمِدُ على غيره - لِيَكفِيَهُ ما يحتاج إليه - هو فَردٌ ساقطٌ سافلٌ ضعيف، فكذلك الأُمَّةُ التي لا تُعنى بشؤون نَفسِها[1]، ولا تسعى في سبيل الجدّ لتنالَ قَصَبَ السَّبق هي أُمَّةٌ مُنحَطَّةٌ سافلة، ليست من الحُرِّيَّة في شيءٍ، بل هي مُقَيَّدةٌ بِسَلاسِل العُبوديَّة.

الحكومةُ تُريدُ من الأُمَّةِ أن تكونَ قَيدَ أوامرها، لا تَحيدُ عن خطَّتها التي تَرسُمها لها، قَدْرَ شِبرٍ. فإن لَجأت الأُمَّةُ إلى الحكومة، وطَلَبَت مَعونَتها في كُلِّ أمرٍ من أمورها، فلا بُدَّ أن تُقيِّدَ نَفسَها بِقيودها، وتجريَ في حياتها الاجتماعية والعِلْميَّة حَسبَ رَغائبها. ولا ريبَ أن الحكومة إنما تُكوِّن رجالاً يَصلُحونَ لِخدمتها، لا رجالاً يَصلُحونَ لأن يَقوموا بما تحتاجُ إليه الأُمَّة. وإن نَبَغَ في مدارسها أو مصالحها رجالٌ شعبيون[2] - وذلك قليلٌ نادرٌ - فَهُم مِمَّن تَعلَّموا الحياة الاجتماعيَّة الوطنيَّة من بِيئَتِهم[3]، لا من أساتذتهم، ولا من الكُتُبِ التي وُضِعت لِتَعْلِيمِهِم.

فإذا أردنا أن نكُونَ أُمَّةً صالحةً راقية، فعلينا أن نسعى لِترقِيَة الأمّة من طريق الأمّة، لا من طريق الحكومة، بما نبْذُلهُ من الهمَّةِ في تلك السَّبيل، كما هي الحالُ في الأُمم المتمَدنة اليوم، فإن هذه الأُمم تُؤَسِّسُ المدارس، وتنشئُ المعامل والمصانع[4] من غير أن تطلُبَ من حكوماتها أن تَمُدَّ إليها يَدَ المَعونة ولو فعلت ذلك لظلَّت متأخرة كما ظللنا.

أَيَّةُ أُمَّةٍ اعتَمدت في إنجاح مقاصدها على الحكومة، فهِي عالة

---

(١) لا تعنى: لا تعتني.

(٢) شعبيون: يعملون لحياة الشعب.

(٣) من بيئتهم: من محيطهم الذي فيه يعيشون.

(٤) المصانع: جمع مصنع، وهو دار الصناعة.

علَيها[١]، مغلولةً بأغلالها[٢]. ومتى كانت الأُمَّةُ مُقَيَّدةً محتاجة إلى غيرها فليست بأُمةٍ حُرَّة، وإذا كانت غير حُرَّةٍ، فمن أين لها أن ترقى!؟ وأنَّى لها أن تَنهَض!؟

الحكومةُ جُزءٌ من الأمّة اختصَّ بأَعمالٍ خاصَّة، وهو يَستَمِدُّ دائماً قُوَّتَه منها، وعليها يعتمدُ في كُلِّ شأن من الشُّؤون، لأنَّ القليلَ يَعتمدُ على الكَثير، وما سمِعنا أنَّ كثيراً اعتمدَ على قليل، إلَّا إذا كان ضعيفاً خاملاً جباناً.

إن أرادت الأُمَّة أن تكونَ لها حُكومة صالحةٌ راقية، فعليها أن تَصلُحَ هِيَ أوّلاً، وتنهَضَ للأخذِ بأسباب التَّرقي والفلاح حتى إذا ما صلَحت وتَرَقَّت، تَرقَّت معَها الحكومةُ، لأنَّ الجُزءَ تابعٌ للكُلِّ، ولأن الحكومة هي صورة الأُمة ومرآتُها. فإن كانت الأُمَّةُ صالحَةً فهِي صالحَةٌ والعَكْسُ بالعَكس. فلَو فرضنا صلاح الحُكومةِ وفسادَ الأمّة، لا تَلْبثُ الحكومةُ أن تَفْسُد، وإن كانت الأُمَّةُ صالحَةً والحكومةُ فاسدةً، فلا تمكُثُ هذِه أن تصلُحَ وتَتَّبعَ الأمّة في سيرها.

وخُلاصةُ القول أن الحُكومة تابعةٌ للأُمَّة رُقِيّاً وانحطاطاً، وعِلماً وجهْلاً، وصلاحاً وفساداً. فعَلينا أن لا نَعْتَمدَ إلا على أنفسِنا، ولا نأمل إلا ما نَبْذُله من الجدِّ والهمَّة. هذا، إذا أردنا أن نكُون قوماً صالِحين، لتَكون لنا حكُومةٌ صالِحة.

فإليكُم أبسُطُ يَدَ الرَّجاءِ أيُها النَّاشئون، أن تجعلوا هدَفكم[٣] خدمة الأُمة خدمةً صادِقة، والسّعْيَ في إنجاحها وترقيتها، حتَّى يعودَ إليها مجدُها الدَّاثِر[٤]، وشرفُها الغابر[٥]، فتُكَوِّنَ حكومةً تُناسِبُها رقِيًّا اجتماعِيًّا وعِلمياً واقتصادِياً وعُمرانياً، وبذلك تكونونَ وطنيِّينَ حقاً.

حقَّقَ الله فيكُم الرَّجاءَ، وحاطكم بعصمته وتوفيقه، إنَّه سميع الدُّعاءِ.

---

(١) العالة: العيال، والمفرد عيل «بفتح العين وتشديد الياء المكسورة» وهو من تجب النفقة عليه من زوجة وولد وأتباع.
(٢) مغلولة: مقيدة ـ والأغلال: القيود.
(٣) الهدف: الغرض الذي يوضع ليرمى إليه.
(٤) الداثر: البالي الممحو.
(٥) الغابر: الماضي.

الـغـرور[1]

ضعافُ النُّفوسِ يرَونَ في أنفسِهِم ما لا يراهُ غيرُهم فيها.

يرَونَ أنَّهُم عُظَماءُ، وليس لهم من أسبابها[2] نقيرٌ ولا قِطْمير[3].

ويرَونَ أنهُم عُلماءُ والجَهْلُ قد خَيَّم على نُفوسِهم. كالضَّباب في يومٍ داجِنٍ[4] ألبسَ الأرضَ وأقطارَ السَّماء أردية العَماءِ[5].

ويَرَونَ أنَّهُم أُناسيُّ[6]، والملكاتُ[7] الحيوانيَّةُ قد مَلَكَت أعِنَّة نفوسِهم[8]، وأخذت بأزمَّة أفئدَتهم[9]، وسيطرت على طباعهم، وتركت سِباعَ شهواتِهم تفْترِسُ عُقولَهم، وتُمزِّقُ رداءَ إنسانيَّتهم. فهُم في الضَّلال يهيمون[10] وفي ظلمات الفُسوق والعصيان يتسكعون[11].

وما ذلك كُلُّه إلا من غرور النَّفْس وطَمعِها بالباطل. وهو خُلُقٌ سافِلٌ يُودي بما في النُّفوس من ذَماء الفَضيلة[12] ويقضي على ما فيها من أمل السعادة، ويمحو ما لأصحابها من بقِيَّة الحُرمَة في نُفوس العُقلاءِ.

---

(١) الغرور: أن يرى الإنسان في نفسه من الفضائل ما ليس فيها.
(٢) الضمير في أسبابها يعود إلى العظمة المفهومة من العظماء.
(٣) النقير: النقرة في ظهر بزرة التمر ونحوه ـ والقطمير: القشرة الرقيقة بين البزرة والتمرة. ليس له نقير ولا قطمير: ليس له شيء.
(٤) الضباب: السحاب يغطي الأرض كالدخان ـ ويوم داجن: كثير الغمام.
(٥) أقطار السماء: نواحيها وجوانبها ـ والأردية: جمع رداء ـ والعماء: السحاب الكثيف.
(٦) الأناسي: الناس، والمفرد إنسان.
(٧) الملكات: جمع ملكة، وهي الصفة الراسخة في النفس.
(٨) الأعنة: جمع عنان، وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة.
(٩) الأزمة: جمع زمام وهو العنان ـ والأفئدة: القلوب، ومفردها فؤاد.
(١٠) يهيمون: يذهبون لا يدرون أين يتوجهون.
(١١) يتسكعون: يتخبطون لا يهتدون لوجهتهم.
(١٢) يودي به: يهلكه ويذهبه ـ والذماء: بقية الروح.

وممَّا يُؤَثِّر في النَّفْس تأثيراً غيرَ صالح، أَنَّ طائفَة من الشُّبَّان ـ الذين هم عمادُ الأُمة، ودِعامَةُ حياتِها القابلة، ورُكْنُ سعادَتها في الآتي ـ قد أصابهُم نصيبٌ وافِرٌ من هذا الخلُق ـ خُلُقِ الغُرور والغَرور[١] ـ، ومَرَنوا على هذه العادة[٢] حتى صارت لهم طبيعَةً يَصعبُ استئصالُها[٣]، لأنها تأصَّلتْ في نفُوسهم[٤]، وتمكَّنت جُذورُها من قلوبِهم[٥] فنفَرت منهُم، بسبب ذلك، الأُمّة، وجفاهم من كان منهُم قريباً، واجتواهم من كان لهم صديقاً حميماً[٦].

يَدرُسَ أحَدُهُم من العلم مسائلَ قليلةً لم يُتقن دَرْسَها، ولم يحكِم[٧] فهمها، فيريك أنَّه علَّامة الزَّمان، وفيلَسوف الوقت.

ويقرأُ قليلاً من الأدب والتاريخ، فَيَضَعُ نفْسَه موضِعَ كبار الأدباء.

ويَنظِمُ كلاماً على وِزان البُحور المعلومة، أو يكتُبُ سُطوراً ينشُرُها في الجرائد، وليس في نظمِهِ شيءٌ من الشِّعر، ولا في كتابته مغزًى تصبو إليه النَّفسُ[٨]. وأكثرُ ما يُسمِّيه شعراً أو إنشاءً، يفيضُ خَطأً معنوياً أو لَفْظياً، أو يكونُ مملوءاً منهُما معاً، وهو ـ مع هذا ـ يَدَّعي، غيرَ خَجِل، أنَّه أكتَبُ كُتَّابِ العصر، وأشعرُ شُعراء الزمان لا يُطاولُهُ[٩] في ذلك مطاولٌ، ولا يُنازِلُهُ مُنازِلٌ.

ويَتَصَدَّرُ قومٌ في المجالس العامَّة والنَّدواتِ الخاصة[١٠] فيتكلَّمون في كُل موضوع، ويَهيمون في كُلِّ وادٍ. فتارَةً تراهم مُحلِّقين في السَّماء وطوراً غائرين في بُطون الأرض وآونَةً يبحثون في تاريخ الأُمم، ما مضى منها وما حَضَرَ، ثمَّ ينتقِلون من ذلك إلى علوم الأدَب وتاريخها، ثُمَّ إلى علوم الدِّين وتَفاريعها، ثم

---

(١) الغرور بفتح الغين ما يغر الإنسان ويدفعه إلى الباطل.
(٢) مرنوا: اعتادوا.
(٣) استئصالها: نزعها.
(٤) تأصلت: ثبتت أصولها وتمكنت.
(٥) جذورها: أصولها.
(٦) اجتواهم: كرههم ـ والحميم: الصديق.
(٧) لم يحكم: لم يتقن.
(٨) تصبو: تميل.
(٩) لا يطاوله: لا يفاخره.
(١٠) الندوات: جمع ندوة وهي المجلس.

إلى الفلسَفَة بأقسامها، فَيخبِطُون في كُل ذلك خَبْطَ عَشواءَ[١] في ليلة عمياء، ليقول الناسُ إنهم عُلماء.

وترى شِرذِمَةً من الأنانيِّينَ[٢]، قَدَمُها في الماء، وأنفُها في السَّماء، وهي حُثالَةُ السُّفَهاءِ[٣] تختال[٤] اختِيال الجبابِرَة[٥]، وتَبطُشُ بَطْشَ القساوِرَة[٦]، وتجلِسُ جِلْسَةَ الأكاسرة[٧] وتمشي مِشيةَ القياصِرة[٨]، وهي لا في العيرِ ولا في النَّفير[٩].

وإن سألتَ أحد هؤلاءِ الأنانيِّين عن سبب هذه الكبرياء أجابك: إنَّ هذا من الإباء[١٠] وما الإباءُ لو يَعلَم إلا تَطْهيرُ النَّفْس من الأدناس[١١] وتَنزيهُها عن الأرجاس[١٢] وحَملُها على مَعالي الأُمور لتأبى الضَّيم[١٣]، فلا تُقيم على الخسف[١٤] ولا تَرضى بالذُّلِّ، ولا تَميلُ إلى شائن الأفعال، بل تأخُذُ بزِمامِ صالحِ الأعمال، وتسيرُ في مناهج[١٥] فاضل الأخلاق.

---

(١) خبط عشواء: مثل يضرب لمن يضرب في الأمور على غير بصيرة. والعشواء: الناقة التي لا تبصر ليلاً.

(٢) الأناني: الذي لا يرى غير نفسه، فهو يقول: أنا أنا.

(٣) الحثالة: سفلة الناس، وأصل معناها: ما يخرج من قشرة الشعير ونحوه.

(٤) تختال: تمشي مشية الخيلاء والعجب والكبر.

(٥) الجبابرة: جمع جبار، وهو القهار، والمتعالي عن قبول الحق، ومن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم. وأما الجبار في صفة الله سبحانه فهو صفة مدح، لأنه القاهر فوق عباده، يسير بحسب مشيئته وإرادته.

(٦) القساورة: الأسود، والمفرد قسورة.

(٧) الأكاسرة: جمع كسرى، وهو لقب لكل من ملك الفرس.

(٨) القياصرة: جمع قيصر، وهو لقب لكل من ملك الروم.

(٩) العير: القافلة من الدواب تحمل الميرة ـ والنفير: القيام العام لقتال العدو وقولهم «هو لا في العير ولا في النفير»: مثل يضرب لمن يحط أمره ويصغر قدره ولا يصلح لهم.

(١٠) الإباء: الامتناع مما يشين.

(١١) الأدناس: الأوساخ، والمفرد دنس، بفتح الدال والنون.

(١٢) الأرجاس: الأنجاس، والمفرد رجس، بكسر الراء وسكون الجيم.

(١٣) الضيم: القهر والظلم والذل.

(١٤) الخسف: تحمل ما يكره، والنقيصة، والذل.

(١٥) المناهج: جمع منهج وهو الطريق الواضح.

إنَّ عمَلَ تلك الشِّرذِمَةِ لَهوَ من صِغَرِ النُّفوس ولُؤمِ الطِّباع، وخِفَّةِ الأحلام[١] ودَناءَةِ التربية، والتَّمسُّك بالأوهام.

فأُعيذُك، أيها النَشءُ الصَّالحُ، من الغُرورِ، فإنَّهُ يَسوقُ إلى هذه الأُمور، ويُزَيِّنُ لك تلكَ الأعمالَ الدَّنيئَةَ ويَحمِلُكَ على مَركب الهوان.

اعرِفْ حَدَّك، واسعَ لما هو فَوقَه، بما تَبْذُلُهُ من الجِدِّ والعمَل واكتِساب الفضائِل. فَرَحِمَ الله امرَءاً عَرَفَ حَدَّهُ فَوَقَف عندَه.

أَخَذَ الله بيدِكَ، وأَزاحَ عن قلبِك الغِشاوة[٢]، وهَداك أقوَم طريق.

(١) الأحلام: العقول ومفردها حلم، بكسر الحاء وسكون اللام.

(٢) الغشاوة: الغطاء.

التـجدد

التَّجدُّدُ هو الحياة. وهو سُنَّةٌ[1] عامةٌ في كُلِّ حيّ.

الأجسامُ الحَيَّةُ تَتجدَّدُ في كُلّ مُدَّةٍ معلومة. فَتَفْنَى ذَرَّاتُها، التي لم تَبْقَ صالِحَةً للبقاءِ، ويَنشأُ غيرُها ممَّا هو قابلٌ للحياة. ولولا هذا التَّجدُّدُ، لما أمكَنَها أن تحيا أكثَر من عَشرِ سنين. ثم تُكْتَبُ بعدها في سفرِ الفناء[2].

إن الموتَ هو طارئٌ على الأجسام يمنَعُ تجَدُّدَها. فهُو قد يكونُ ضعيفاً فيَعمَلُ على مَنع التَّجدُّدِ تَدريجاً، حتى إذا استحْكَمَت جراثيمُهُ[3] بَلَغت ما تُريد. وقد يكون قوياً، فيكونُ منهُ الموتُ الفُجائيُّ، الذي يَقضي على نَسَمات[4] التَّجدُّدِ قَضاءً سَريعاً.

وهذا هو الشَّأْنُ في النَّبات أيضاً، فإِنَّهُ من الأجسام ذَواتِ الحيَاة فالبُستانُ الذي يَتَعَهَّدُهُ مِحراثُ الحارِثِ[5]، وتَعمَلُ فيهِ يَدُ الباحث، فتُقَلِّبُ أرضَهُ، وتَسْقي أغراسهُ، وتُشَذِّبُ أغصانَهُ[6]، وتُنَقِّي تُرْبَتَه من الحشراتِ الضَّارة والنَّباتاتِ الفاسدة، تَسري فيه روحُ التَّجدُّد، فيُؤْتي أكُلَهُ موفوراً[7]، ويُفيضُ على أصحابه من الثَّمَراتِ أشهاها، ومن الفاكهة أطيبها.

والبُستانُ الذي يُهمِلُهُ البُستانيُّ ـ فلا يَفلَحُهُ، ولَا يَسْقيهِ، ولا يَتعهَّدُهُ

---

(١) السنة: الطبيعة.

(٢) السفر: الكتاب، والجمع أسفار.

(٣) استحكمت: تمكنت ـ والجراثيم: الأصول، وتطلق اليوم على ما يسمى المكروب.

(٤) النسمات: الأنفاس، جمع نسمة، وهي نفس الروح.

(٥) يتعهده: يتفقده ـ والمحراب: السكة التي تحرث بها الأرض أي: تشق بها ـ والحارث: الزارع، والجمع حراث.

(٦) تشذب أغصانه: تصلحها بقطع شذبها، وهو ما تفرق من عيدانها مما لم يكن صالحاً.

(٧) موفوراً: تاماً.

بالحِيطَة(١)، ولا يَنفي عنهُ ما يَضرُّ به من حَشَراتٍ ونبات، ولا يمُدُّ إليه مِنْجلَ التّطْهير - تمرضُ تُربَتُهُ فلا تَقوى على الإنبات، وتَضْعُفُ أشجارُهُ، فلا تَسْتطيعُ الثّبات، وتَذبُلُ أغصانُهُ، فلا تجودُ بالثّمرات.

وما ذلك إلّا لفَقدِ أسبابِ التّجدُّد. والتّجَدُّدُ سِرُّ البقاءِ.

الأُمّة هي الأشجارُ في بُستانِ الحياة، ومُرشدوها هم الحُرَّاث فإن أهملوا شأنَ تَربيتها - فتركوا أمرَ تعليمها، ولم يُرَقُّوا عقولها، ولَم يُهذِّبوا أخلاقَها، ولم يَنفُوا عنها ما يَطرأُ عليها من فَاسدِ العاداتِ وضارِّ الأخلاق، ولم يَتعهّدوها بما يَحدُثُ من جَديد المحارِث، وحديثِ الوسائِل المُحيِية، ولم يُهيبوا بها(٢) لِتنْهَضَ وتَحيا حَياةً سعيدةً - كانت عاقِبتُها الخُمول فَالذُّبولَ، فاليُبْسَ، فالاستئصالَ من بُستان الحياة(٣).

التّجدُّدُ يَكونُ في المعقولات، كما يكونُ في المحسوسات، فإذا كانتِ الأجسامُ الحيَّةُ محتاجةً إلى التّجدُّد - لِتُحافِظَ على حَياتِها - فكذلِكَ معنَوِيّاتُ الأُمَّة، يجبُ أن تتجدَّد بِتجدُّد حاجاتها.

وإن كان البُستانُ - وإن بالَغَ البُستانيُّ بتَعهُّدِهِ وتَجويده - لا بُدَّ أن يَظهرَ بينَ نَباتِه الطَّيِّب نباتٌ فاسدٌ وحَشَراتٌ ضارّةٌ، فكذلِكَ الأخلاقُ والعادات، لا تَلبَثُ أن يَندَسَّ فيها(٤) من الأوضارِ ما يُشوِّه مَحاسِنَها(٥) ويُفسِدُ صالِحها.

فالبُستانيُّ لا يجوز لهُ أن يُهمِل ذلكَ النَّباتَ الفاسِد، ولا تِلك الحشرةَ الخبيثَة، كَيلا تُفسِدَ النَّباتَ كُلَّه.

والأُمّةُ يَجب أن تَتنَبَّهَ لكُلِّ خُلُق خَليقٍ بالرَّفض(٦)، وكُلّ عادةٍ جَديرةٍ بالطّرح، فتعمَلَ على مَحوِهما، حتى لا يَتعدَّى ضرَرُهُما إلى فاضِل الأخلاق وحسَنِ العادات.

---

(١) الحيطة: الحفظ والتفقد.

(٢) أهاب به يهيب: صرخ به وزجره.

(٣) الاستئصال: القلع والنزع.

(٤) يندس: يدخل ويندفن.

(٥) الأوضار: الأوساخ، والمراد بها الأخلاق الفاسدة، والمفرد وضر «بفتح الواو والضاد» - ويشوه: يقبح.

(٦) خليق: جدير.

التَّجدُّدُ سُنةٌ طَبيعيةٌ إلهيَّةٌ، لِذلك كان الله سُبحانَهُ يُرسلُ الرُّسُلَ، الواحدَ إثرَ الواحِد، حتى يُجدِّدَ اللّاحقُ مَعالِمَ ما جاءَ بهِ السَّابق[١] مَعَ زياداتٍ تَقتضيها الحالُ، وتَدعو إليها الحاجة. وإلى ذلك الإشارةُ في الحديث: «**يَبعَثُ الله على رأسِ كُلِّ مِئَةِ عامٍ مَن يُجدِّدُ لهذه الأُمةِ أمرَ دينها**».

متَى سَرَت روحُ التَّجدُّد في الأُمّة، تَثورُ[٢] على ما فَسدَ من أخلاقها. وتَهيجُ على ما اختَلَّ من أنظِمتها[٣]، وتَقضي على ما شاخَ من عاداتها[٤] حتى تَرجِعَ[٥] ذلك كلَّهُ يَتَهادى في مَطارقِ الشَّباب[٦]، ويخطِر في حُلَل الكَمال.

إنَّ الأُمّة، أيها النشءُ الصَّالح، في الحاجة القُصوى إلى التَّجدُّد. فقد اشتعَلَت رُؤُوسُ عاداتِها وأخلاقِها وأنظمَتِها ولُغَتِها وسائِر مُقَوِّماتِها شَيباً.

فانهَضْ، رَعاكَ الله وحاطَك بِمعونَته، بِأُمَّتِك، بما تَبُثُّهُ فيها من روحِ التَّجدُّد، فإنَّ التَّجدُّدَ سِرُّ الحياة.

(١) المعالم: الآثار، والمفرد معلم.
(٢) تثور: تهيج وتتحرك.
(٣) الأنظمة: القوانين التي توضع لتسير الأمة في سبيلها، والمفرد نظام. والنظام في الأصل: قوام الأمر الذي به يقوم، وأصل معناه: الخيط الذي ينظم فيه اللؤلؤ.
(٤) شاخ: هرم وبلي.
(٥) رجعه يرجعه: أعاده وأرجعه، لغة فصيحة.
(٦) يتهادى: يتبختر ـ والمطارف: ثياب من الحرير مربعة لها أعلام، والمفرد مطرف.

الترف[1]

ما وَجدَ التَّرَفُ سبيلاً إلى نُفوسِ أُمةٍ إلا أفسدها، وجَعل عاليَ سعادتِها سافِلَها، وبَدَّدَ ما لَدَيها من ثروة[2]، وأسقطَ ما لها من رِفعة، ودَمَّرَ ما عندها من عُمران[3].

المُترَفون[4] في كُلِّ أُمةٍ تَفسُدُ أخلاقُهُم، بما يَكثُر لَدَيهِم من دَواعي التَّنَعُّم، وما يُحيطُ بِهم من أسبابِ الفُسوق عن سُننِ الله[5].

التَّرفُ يَسوقُ إلى السَّرَف، والسَّرَفُ داعِية التَلَف. فالمُترَفون ضُعفاءُ العُقول، ضُعفاءُ الجُسوم، ضُعفاءُ الإرادة، خامِلو الأذهان، لا يَعرِفونَ للحياةِ معنى سِوى ما تَسوقهُم إليهِ الشهواتُ الحيوانيَّةُ، وتَدفعُهُم إليه اللذَّاتُ البهيميَّة. فلا يَسْعَوْنَ لِما يُفيدُ الأُمّة، ولا يُفكِّرون فيما يَعْمُرُ البِلاد. فالمعروفُ عِندَهم منْكورٌ والمنكورُ مَشهور، والخيرُ مَقبور والشّرُّ منشور. فإن دَعوْتَهُم لِتخفيفِ مُصابِ الأشقياءِ[6] وتَجفيفِ دَمْعَةِ الفُقراء، وبَذلِ المالِ لتَعْليم الجُهَلاءِ، غَصَّت حُلُوقُهُم، وشَرقوا بِريقهِم، وأَمالوا أعناقَهُم، ولوَّوْا رؤُوسَهُم[7]. وإن طُلِبوا لِبذل الأموالِ في سافلِ الأفعال، استبَقُوا مُلَبِّين، وأقدموا مُسْرِعين، وأجابوا الدَّاعين، كَأَنَّهُم السَّهْمُ المُرسَلُ، أو القَضاءُ المُنزَل.

ما مِن فاسدٍ يَنتشرُ في الأُمّة، إلّا كانَ هؤُلاء المُتْرَفون منشأَهُ. وما من بَليَّةٍ

---

(١) الترف: التوسع في التنعم. يقال: أترفته النعمة، أي: أطغته وأبطرته.

(٢) بدد: أذهب وفرق.

(٣) دمر: قوض وهدم.

(٤) المترفون: المتنعمون.

(٥) الفسوق: الخروج والعدول عن الأمر، والعمل المنكر.

(٦) الأشقياء: جمع شقي وهو البائس المحتاج.

(٧) لوّوا رؤوسهم: أمالوها وأداروها.

تـحُلُّ بـها، إلا كانوا جَرائيم أوبائِها[١]. وما مِن فُسُوقٍ إلا كانوا عِمادَه وذَرْوَةَ سَنامِهِ[٢].

إنَّ النُّفوسَ لَتضرى بالشَّهَوَاتِ[٣] حتى تَستحوذَ عليها[٤]، فلا تَتْرُكُ فيها مَنْفذاً إلا ولَجتْه[٥]، ولا مُتَّسعاً إلَّا ملأَتْهُ. وما ذلكَ إلا منَ الترَفِ، فإنَّهُ يدعو إلى التَّبسُّطِ في المَلذَّاتِ[٦] وإعطاءِ النَّفْسِ الأَمَّارةِ هَواها، وإجابة مُيولها. ومتى لَهتِ الأُمةُ بأهوائها[٧] واشتَغلَت بِشهواتِها، وعبِثت بمرافقها[٨] وغَفِلت عن مُقوِّماتِ حَياتها، أسرعَ إليها الفَساد، وعمَّها البلاءُ، وحاطَتها الأَرْزَاءُ[٩].

عُج بِطرفِك نحوَ الأُمم الخالية، تجد أن التَّرَفَ قد قضَى عليها، حتى جعلها عِبرةً لمن يأتي بعدَها.

هذه الأُمَّة الرُّومانية، والأُمَّةُ الفارِسيَّة، والأُمَّة العَربية، فإنَّها بعدَ أن كانت في ذُرى المجدِ والسَّعادة، قد هَوى بها الترَفُ إلى مكانٍ سحيق[١٠]، ونزلَ بها التَّبسُّطُ في هَوى النَّفْسِ إلى الحَضيض[١١]. ورُبَّما كانَ هذا السَّبَبُ مَمزوجاً بغَيرهِ من الأَسباب التي تدعُو إلى الانحلال، ولكنهُ السَّببُ الأوَّلُ الذي يَجرُّ وراءهُ غيرَهُ من الأسباب.

وقِس على هذهِ الأُمم غيرها من الأمم الماضيَة، وابحثْ تَجدْ أن هذه العِلَّة هي جُرثومةُ الجراثيم، وعِلَّةُ العِلل.

قارِنِ اليَوْمَ بين أخلاق أهل البادِيَة وأخلاق سكانِ الحواضر وقايِسْ بين

---

(١) الأوباء: الأمراض والمفرد وبأ، وأما الوباء: فجمعه أوبئة.
(٢) ذروة كل شيء: أعلاه ـ والسنام في الأصل: ما ارتفع من ظهر الجمل، والجمع أسنمة.
(٣) تضرى بالشهوات: تولع بها حتى تعتادها.
(٤) تستحوذ عليها: تستولي عليها.
(٥) ولجته: دخلته.
(٦) التبسط: الاجتراء وترك الاحتشام.
(٧) أهواء: جمع هوى النفس.
(٨) عبثت: هزأت واستخفت ولهت ـ والمرافق: المنافع والمصالح.
(٩) الأرزاء: المصائب، والمفرد رزء.
(١٠) سحيق: بعيد.
(١١) الحضيض: الأرض وأسفل الجبل.

جُسومِ هؤُلاءِ وجُسوم أولئِك، ثم انظُرْ إلى ما عِند البادين[١] من شرفِ النَّفس، والوفاءِ، والعِفة، والكَرَم، والشَّجاعة، وغيرها من الأخلاق الفاضِلة، وإلى ما عندَ هؤُلاءِ المتمَدِّنين من أضدادِها، واحكُم بعدَ ذلك على ما يجرُّهُ التَّرَفُ على الإنسانِ من الأمراض في الأخلاقِ والأجسام.

نَحْنُ لا نَدعو إلى البَداوةِ ولكن نَدعو إلى التّخلُّق بأخلاقِ أهلها، ونُهيبُ[٢] بمن يُسَمّي نَفْسَه إنساناً أن يُقْلع عن سافِلِ العادات، ويَتجنبَ سَفيهَ الأخلاق، ويَبتَعِدَ عن التَّرَف، فهوَ يجرُفُ الفَضائِلَ، ويُبقي على الرَّذائل، وأن يكونَ بين ذلك وسطاً، كيلا يكونَ أَمْرُهُ فُرُطاً[٣].

فتنبَّهوا، أيُّها النَّاشئون، إلى ما يُحيط بكُم من سِباع المَلذَّات، وما يَحوطُكم من ضَواري الشَّهوات[٤] ولا تَتَخلَّقوا بأخلاقِ المُترَفين، ولا تَسيروا سَيرَ العادين[٥]، كيلا تُكْتبوا في الذاهبين وفي هذا بَصائر[٦] لكم إن كُنتم مُبصرين.

---

(١) البادي: الذي يسكن البادية.
(٢) نهيب: نناديِ ونصرخ.
(٣) أمر فرط: مجاوز الحد.
(٤) الضواري: الحيوانات المفترسة كالذئب والأسد ونحوهما.
(٥) العادي: المجاوز الحد في أعماله.
(٦) البصائر: العبر والشواهد، والمفرد بصيرة.

الـديــن

حَـقَّ الـعــلاءُ[1] لأنـفُـسٍ طَـهُـرَت
عـنـهـا تـنـاءَى الـفُـحـشُ والـفَـنَـدُ[2]
لَـبِـسـت دِثـارَ الـعـلـم، وادَّرعـت[3]
بـالـدِّيـن فـهـو لِـمـجـدهـا عَـمَـدُ
فـالـدِّيـنُ، لـولاهُ لَـمـا انـقـطَـعـت
عـن عـقـلِ هـذا الـعـالـمِ الـعُـقَـدُ
ولـمـا اسـتـقـامَ لأمـرِهـم عِـوَجٌ
ولـمـا أُقـيـمَ لِـمـيْـلِـهـم أَوَدُ[4]
ولأنـجـدوا، يَـغـلُـوهُـم غَـطَـشٌ
ولأَتـهـمـوا يَـجْـفـوهُـم الـرَّشَـدُ[5]

الدِّين الصَّحيح نِبراسُ المدَنِيَّة[6]، والعَمَلُ به رائد الإنسانيَّة[7].

الدِّينُ وضعٌ إلهيٌّ. وحاشَ لله أن يأمُرَ عِبادَهُ بما يُقعِدُهم عن العمل الصَّالح، ويَصدِفُهُم عن المعيشة الرَّاضِية[8].

فالمدَنيَّةُ الصَّحيحَةُ هي الدينُ الصَّحيحُ. فإن لم يكن كُلٌّ منهما

---

(١) حق: ثبت ووجب ـ والعلاء: الشرف والرفعة.
(٢) الفحش: المنطق الفاسد القبيح ـ والفند: الكذب، والظلم، وكفر النعمة.
(٣) الدثار: الثوب ـ ادرعت: بالدين اتخذته درعاً لها.
(٤) الأود: الأعوجاج.
(٥) أنجدوا: أتوا نجداً ـ والغطش: الظلام ـ وأتهموا: جاؤوا تهامة. ونجد وتهامة من بلاد العرب. فنجد أراضيها مرتفعة، وتهامة أراضيها منخفضة والمراد بالإنجاد والإتهام هنا: السير على اختلاف أنواعه.
(٦) النبراس: المصباح يستضاء به.
(٧) رائد: مرشد.
(٨) يصدفهم: يصرفهم ويمنعهم.

عينَ الآخر، فهُما شَقيقان، أبوهما الحقُّ، وأُمُّهما الحقيقةُ.

ما أَسعدَ النَّاسَ إلا الدِّينُ، وما أشقاهم إلا تَركُهُ، أو التَّمَسُّكُ بِقشوره وإهمالُ لُبابه.

الدِّينُ سَيفٌ ذو حَدَّين فإن أحسَنَ المُنتَسِبُ إليه استعماله كان عَوناً في الشَّدائد، ومُرْشِداً في الفَلوات[١] ومِصباحاً في الظُّلمات. وإن أَساءَ انتِضاءَهُ[٢] ضَرَّ به وبِغيرِه. وإنَّ ما نَراهُ من شَقاءِ كثيرٍ من المتَدَيِّنين، إن هُوَ ناشئٌ إلَّا من جهلهم بالدِّين، وبُعدِهم عن جَوهرِ النَّقِيّ، الخالِي من الشَّوائب[٣] المُنزَّه عَمّا دَسَّه فيهِ الدّاسّون[٤].

وعن أعمالِ من لا يَعرفونَ منهُ إلا الاسم وبعضَ الأعمال الظاهرة، وعن أغراض الذين اتخذوهُ مَلعَباً لأهوائِهم، ومَركَباً لسافل مَقاصِدهم.

الدِّينُ اليومَ شَبَحٌ لا روحَ لهُ وألفاظٌ أضاعَ النَّاسُ معناها. وقد اتخذَهُ المتَلَبِّسون به حبالةً[٥] لاصطياد عُقول العامَّة، ووسيلةً لِتعظيمها إياهم، وإتراعِ حقائبهم من أموالها[٦]. وهُم ليسوا من الدين في شيءٍ بل هناك جَهْلٌ مُطبق، وأخلاقٌ وضيعَة، ونُفوسٌ ضَعيفَة، ونُفورٌ من صالح الأعمال، وبُعدٌ عن هَدَفِ الحقيقة[٧]. وأكثَرُهم عبدةُ أوهام، وسَدَنَةُ تقاليد[٨] وأُجراءُ أهواء.

إنَّ العامَّةَ غيرُ مَلومَةٍ إن اعتَقَدت ما لا أَصلَ لهُ في الدِّين. وإنَّما الملومُ أولئك الذين يُسمُّون أنفُسهم خاصَّةً، وهم يَدُسُّونَ في نُفوسِ العامَّة ما لا يَتَّفقُ مَعَ الشَّرع، ويَنْشرون فيهِم من الإفك[٩] ما يُسمِّمون به العُقول، ويُوَسِّعُ مسافة الخُلفِ بين أبناءِ الوطن الواحد.

---

(١) الفلوات: جمع فلاة، وهي الصحراء الواسعة.

(٢) انتضاء السيف: تجريده من قرابه.

(٣) الشوائب: العيوب، والأدناس، والأخلاط.

(٤) دسه: أدخله.

(٥) الحبالة: شبكة الصياد.

(٦) الإتراع: الإملاء ـ والحقائب: جمع حقيبة وهي خريطة يعلقها المسافر في الرحل للزاد ونحوه.

(٧) الهدف: الغرض الذي يوضع ليرمى إليه.

(٨) السدنة: جمع سادن، وهو خادم الصنم.

(٩) الإفك: أشد الكذب.

ضَررُ الدِّين من رَجُلَين: رَجُلٍ:

ظَـنَّ ديـنَ الله فـي تَـرْكِ الـدُّنـا[١]
ورأى الإعـراضَ عَـنـهـا أنـفـعـا
وَهـوَ، لـو جـاءَتـهُ مـنـهـا بَـدرةٌ[٢]
طَلَّـقَ الـتـقْـوى، وعـافَ الـوَرَعـا[٣]
فَـهُـو لا زُهـداً بـهـا عـنـهـا نـأى[٤]
لـكِـن الـجِـدُّ يُـذيـبُ الأضـلُـعـا
خـافَ أن يَـسْـعـى، فَـيُـدمـي رِجـلَـهُ
فـرأى الـرَّاحَـةَ فـيـمـا صَـنَـعـا
لـيـسَ بـالـزَّاهـد فـي الـدُّنـيـا امْـرُؤٌ
يَلبَسُ الصُّـوف، ويَـهْـوى الـرُّقَـعـا[٥]
إنَّـمـا الـزاهِـدُ فـي الـدُّنـيـا امـرُؤٌ
عَـفَّ نَـفْـسـاً، فـأبـى أن يَـخـنَـعـا[٦]

ورجُلٍ يَدعو إلى باطلٍ باسمِهِ، ويُكفِّرُ سواه أو يُبَدِّعُهُ أو يُفَسِّقُهُ[٧] لِتظنَّ العامَّةُ أنَّهُ مُتَديِّن، وهوَ بعيدٌ عن الدِّين بُعْدَ السَّماءِ عن الأرض.

فاحذَر أيها النَّشءُ الصَّالحُ، هذَينِ الرَّجلَين، فَهُما آفةُ الدِّين[٨].

الدِّينُ نورٌ، وعَمَلُ هذَينِ ظُلمة. الدِّينُ حَقٌّ، وعَملُهُما باطِل. الدِّينُ عُمْرانٌ وما يَدعوانِ إليه خراب.

لا تـظـنَّ الـدِّيـنَ مـا يُـمـلـي الـهَـوى
لـيـس ديـنُ الله تـلـكَ الـبِـدَعـا[٩]

---

(١) الدنا: جمع الدنيا، وإنما جمعت مع أنها واحدة لاعتبار أقسامها ومظاهرها.
(٢) البدرة: عشرة آلاف درهم، والجمع بدر «بكسر الباء وفتح الدال».
(٣) الورع: الابتعاد عن الشبهات خشية الوقوع في المحرمات.
(٤) الزهد: الإعراض عن الشيء احتقاراً ـ ونأى: بعد.
(٥) الرقع: جمع رقعة، وهي ما يرقع به الثوب.
(٦) يخنع: يذل ويهون ويحط من نفسه ومروءته.
(٧) يبدعه ويفسقه: ينسبه إلى البدعة والفسق.
(٨) آفة الشيء: عاهته وضرره وفساده.
(٩) البدع: جمع بدعة، وهي ما ينسب إلى الدين وليس منه.

إنــمــا الــدِّيــنُ ضــيــاءٌ لَــمــعــا
ـ فـاسـتـنـارَ الـكَـونُ لـمَّـا سَـطَـعـا ـ
قَـبِـسَـت مـنـهُ الـمـعـالـي شُـعْـلَـةً
صَدَعت قَلبَ الدُّجا، فانصَدَعا[١]

تَمسَّكوا، مَعشرَ النَّاشئينَ، بدينكم. ولا تَدَعوا للمُنتسِبين إليه، وهو بَراءٌ منهُم، سَبيلاً تَفوزوا بالسَّعادَتين، وتَنالوا الحُسْنَيَيْنِ[٢].

(١) صدعت: شقت ـ والدجا: الظلام.
(٢) إن ما ورد من الشعر في هذه العظة هو لصاحب العظات.

المدنية

المَدَنيَّةُ الحق سيرَةٌ تُكسبُ المتمدِّنَ صِحةً في جسمِهِ وعَقلِهِ، وتُلبِسُهُ حُلَّةً تُزينهُ في أهله وعشيرتِه وبيئتِه[1]، وتجعلُه سَعيداً في دُنياه وآخرتِه.

فمن تَردَّى بِردائها، وسعى لها سَعيها، كان مُتمَدِّناً. ومَن فهمها على غير وجهِها ـ فَلَبِسَ غيرَ ردائِها ـ كان مِمَّن طُمِسَ على قلُوبهم، وضُربَ بينهُم وبين السَّعادة بأسوارٍ لا تَقوى على اختراقها مَدافِعُ الآمالِ، بل تَعيا[2] عن بُلُوغ أعلاها نُسورُ الأمانيّ، ويَكِلُّ دونَ ذُراها طَرَفُ الرَّجاءِ[3].

ما المدنيَّةُ إلا أخلاقٌ فاضلةٌ، تُثمِرُ ائتلافَ الأفراد، واتِّحادَ الجماعاتِ، وسَعيٌ وعملٌ، يَلدانِ عُمرانَ البلاد وارتقاءَ الحالةِ الاجتماعية، وإقدامٌ على تَطهيرِ النَّفس مِن الرَّذائلِ، لاكْتسابِ الفضائل، وإحجامٌ عن الضَّرر بالناس[4] وابتِعاد عن مَناكِر الأخلاق، وبَذلٌ لِتخفيفِ ويَلاتِ البائس[5] وتشييدِ صُروحِ المدارس[6].

كانتِ الأُمَمُ المَشرِقيَّةُ، وكانَ لها في المدنيَّة صَولة وفي تَثبيتِ أركانِها دَولة. ثمَّ دارت عَليها الدَّائِرَة، فَطَرأَ عليها ما طَرأ، مما خَرَّبَ عُمْرانها، وبَدَّدَ تَمدُّنها[7] سُنَّةُ الله فيمَن لم يَعملْ بقانون الاجتماع، ولم يَظَلَّ سائراً في سبيلِ الحضارةِ الصَّحيحة[8]. فانتَقلت عُلومُها ومَدَنِيَّتُها إلى قوم عَرفوا فضلها،

---

(١) البيئة: المنزل، والبلد أو القطر الذي تعيش فيه.

(٢) تعيا: تتعب وتعجز.

(٣) الذرا: جمع ذروة وهي أعلى كل شيء ـ والطرف: العين.

(٤) الإحجام: التأخر والامتناع والكف.

(٥) البائس: الشديد الحاجة.

(٦) شيد البناء تشييداً: رفعه ـ والصروح: القصور، والمفرد صرح.

(٧) بدد: فرق وأذهب.

(٨) الحضارة: المدنية، وهي خلاف البداوة.

فأحَلُّوها المقامَ الأرفَع. ووسَّعوا لها صُدورَهم. وزادوا فيها ما اقتَضَتْهُ سُنةُ التَّرَقِّي، ودَعَت إليه الحاجة. فَبلغوا من الكَمال في الحضارَةِ مبْلَغاً جَسيماً وساروا أشواطاً عَظيمة[١] فمَلكوا نَواصِيَ الأمم الخامِلة[٢]، وأحكموا الشَّكائمَ في أفواهها[٣].

غيرَ أنَّ مَدَنيَّتَهُم لم تَخلُ من شوائِبَ[٤] تخالط كُلَّ قوم استبْحَرَ عُمْرانُهُم[٥] ونَمت حضارتُهُم. على أنهم لَيسوا راضين عَمَّا دَهَمَهم من الأشواك[٦]، بَل تراهم ساعين نحو تَشذيبِ شَوائِبهم[٧] وتهذيب مَدَنِيَّتِهم.

وقد أفاقَ الشرقُ اليومَ من غَفلَتِه، وتنبَّه من سِنَتِه[٨]، وطَفِقَ يُقَلِّدُ مَدنيَّة الغرب، كما قَلَّدَ الغَربُ مَدَنيَّتَهُ من قبلُ. غيرَ أن السَّيْرَ ضَعيفٌ، والسَّعيَ بطيءٌ. وأكثَرُ المُقَلِّدينَ لم يَتَمَسَّك إلا بِقُشورِ التمدُّن، تاركاً لُبابَهُ. فما يَدرسونَهُ، إنَّما هو نَظريَّاتٌ لا تُسمِنُ ولا تُغني من جوع. والعِلمُ إنما هو العَمل. وهؤُلاءِ لا يَعلمون. وفائدة العلوم الكونيَّةِ (أو العَصرية) هو الوُصول إلى ما وصلَ إليه الغَربيُّون، من إنشاءِ المعامل ودورِ الصِّناعات، التي تُدِرُّ على البلادِ غِنًى وثروةً وتجتاحُ منها الفَقر[٩] وتقضي على البُؤس[١٠].

وهناك قومٌ مِمَّن يَدَّعون تَقليدَ بَني الغَرب، لم يُقَلِّدوهم في علم مُفيد، ولا عَمَلٍ نافع. وإنَّما قَلَّدوا فُسَّاقهم وفاسدي الأخلاق منهم. فلا يعرِفون عن المدنيَّة إلَّا اتِّباعَ الهوى، والعَمَلَ بالمناكِرِ، والتَّفَنُّنَ في الأزياءِ[١١] والتَّمَسُّكَ بسافِلِ العادات، وتَبذير الأموالِ في سَفيه الأفعال.

---

(١) الأشواط: جمع شوط، وهو الجري مرة إلى الغاية، وهو أيضاً: الغاية نفسها يجري نحوها.
(٢) النواصي: جمع ناصية وهي مقدم الرأس.
(٣) الشكائم: جمع شكيمة، وهي حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس.
(٤) الشوائب: الأخلاط، والعيوب، والأدناس.
(٥) استبحر: انبسط واتسع.
(٦) دهمهم: جاءهم على حين غفلة.
(٧) التشذيب: الإصلاح والتهذيب.
(٨) السنة: الغفلة والنوم.
(٩) تجتاح: تستأصل وتمحو.
(١٠) البؤس: الشدة والشقاء.
(١١) الأزياء: جمع زي: بكسر الزاي، وهو الهيئة، والمراد به هيئة الملابس ونحوها.

فاحذَر أيها الناشئ، أن تَفهمَ المدنيَّةَ فهماً لا يَنطَبِقُ على حقيقَتِها، فَتخسرَ دنياكَ وآخرتَكَ، وتَجتذبَ إلى جسمك الأمراض، وإلى عقلك الفَساد.

واعلم أنَّ المدنيَّةَ الصَّحيحَة، هي ما شرحتُ لكَ. فَتَمَسَّك بِعُراها[1] واعمَل بمقتضاها، تَنل نَفْسُكَ العاقِلةُ مُناها وتَفُزْ بِمشتَهاها.

(١) العرا: جمع عروة وهي ما يوثق به ويعول عليه، وهي في الأصل: مقبض الدلو والكوز ونحوهما، وما يدخل فيه الزر من القميص ونحوه.

الـوطـنـيـة

ما عجِبْتُ لأحد قَطُّ عَجَبي مِمَّن يَدَّعي الوطنية، ويَزعُمُ أَنَّهُ يَفدي الوطنَ بِدَمِه ومالهِ، ثمَّ تَراهُ شديداً في تخريبِ صَياصيه[1] بما يأتيهِ من ضُروبِ النِّكايةِ فيهِ[2].

ليسَ كُلُّ من يُنادي بالوطنيَّة وطَناً، حتى تَراهُ عاملاً للوطَنِ بما يُحْييه، باذلاً ما عَزَّ وهَانَ في سَبيلِ ترَقيهِ، يسعى معَ السَّاعين في إعلاءِ شأنه، ويَنصَبُ[3] معَ النَّاصبين في حِفظ كيانه.

أمَّا من يسعى فيما يَفُتُّ في عَضُدِه، ويَكسِرُ في ساعِده[4]، فَقد بَعُدَ ما بينهُ وبينَ الوطنيَّة، ولو رَفَع عقيرتهُ[5]، وملأَ الأَقطارَ صُراخاً، ونادى في الأُمّة: أنْ أَني من الوَطنيين المخلِصين.

الوطنيَّةُ الحقُّ هي حبُّ إصلاحِ الوطن، والسَّعيُ في خدمتِه. والوطنيُّ كُلُّ الوطنيِّ من يَموتُ لِيَحيا وطنُه، ويمرَض لِتَصِحّ أُمته.

أَلا، إنَّ للوطن على أبنائه حُقوقاً، فكما لا يَكُونُ الابنُ ابناً حقيقياً حتى يقومَ بواجِب الأبوَّة، فكذلك ابنُ الوطن، لا يكُونُ ابناً باراً حتى يَنْهضَ بأعباءِ خدمته[6]، ويدفعَ عن حِماهُ المؤذين، ويَذودَ عن حِياضه المدَلِّسين[7].

---

(١) الصياصي: الحصون، وكل ما امتنع به، والمفرد صيصة وصيصية.

(٢) النكاية: القهر، يقال نكاه ونكى فيه، أي: قهره وظلمه.

(٣) ينصب: يتعب.

(٤) العضد: هو من المرفق إلى الكتف. وفت العضد وكسر الساعد: كناية عن إضعاف القوة وتفريق الأعوان.

(٥) العقيرة: الصوت.

(٦) الأعباء: الأحمال الثقيلة، والمفرد عبء.

(٧) يذود: يدفع ويمنع ـ والتدليس: أن يظهر المرء على خلاف ما هو عليه وأصل معناه: كتم عيب السلعة عن المشتري.

ومن هذه الحقوقِ تكثير سَواد المتَعلِّمين، المتخَلِّقين بِصحيح الأخلاق، المغروسِ في قلوبهم تلكَ الحِكْمَةُ المشهورة: «حبُّ الوطنِ من الإيمان» وذلك لا يكُون إلا بِبذلِ المالِ في سبيل المصالِح العامَّة، وإفراغ الوسعِ في تشييد المدارس، التي تَنفُثُ في روعِ النَّابتةِ روح الوطَنية(١) وتُنْبتُ في نُفوسهم غِراسَ الفضيلة والعمل الصَّالح، وتُهيبُ بهم(٢) لِينهضَوا ـ متى بَلَغوا مَبلَغ الرُّجوليَّة ـ إلى خِدمة هذا الوطن التَّعس الذي ضَرَّهُ أبناؤهُ، أكثَرَ مِمَّا ضَرَّ بهِ أعداؤهُ.

وعن هؤلاءِ النَّابتين تَصدُرُ مُقَوِّماتُ الحياة لهذه الأُمة التي كادتْ بسَببِ خُمولها وجُمودِها تُكتَبُ في أسفارِ الأُمَم المندرسة(٣).

متى نَشأ هؤلاءِ التلاميذ ـ الَّذين يُرَبَّونَ تلكَ التربية الصَّحيحة ـ ودَخلوا مُعتَرَكَ الحياةِ الاجتماعيَّة، كان منهُم ما لا عينٌ رأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر.

التربيةُ الحقُّ روحُ الحياة، والعِلمُ دَمُ الوطن. ولا تُمكنُنا الحياة السَّعيدة إلا بهما. فالتربيةُ تَدفَعُ إلى السَّعي والعَمل، والعلمُ يُرشِدُ إلى طريق السَّعادة.

نحنُ في حاجةٍ إلى المصانع الوطنية، والتجارة الوطنية، لِتَنالَ البلادُ الاستقلالَ الاقتصاديّ، وتتخلَّص من نيرِ الحاجة إلى الأجانب فمَن سعَى نحو استقلال الوطَن وتخْليصِهِ من مَدِّ يَدِهِ إلى غيره، كان الرَّجلَ الوطني الذي تَنحني أمامه الرُّؤوسُ إجلالاً.

إنَّ لُكلِّ نتيجةٍ مُقَدِّماتٍ. ومُقَدِّماتُ الاستقلال تَربِيةُ الناشِئينَ وتَعليمُهم لِيكونوا يَدَ الوطَن العاملة، وروحَه المُقَوِّمة، ودَمه الجاري في عروقه، فَعلِّموا الأولادَ، تَسْعَدِ البلاد.

حبُّ الوطن مَلَكةٌ من مَلَكات النَّفس(٤)، لا يُنكِرُها إلا الأفّاكون(٥) أو

---

(١) تنفث: تلقي ـ والروع: القلب ـ والنابتة: النشء.

(٢) تهيب بهم: تناديهم.

(٣) الأسفار: الكتب، والمفرد سفر ـ والمندرسة المنقرضة التي انطمس ذكرها ومجدها.

(٤) ملكة: صفة راسخة.

(٥) الأفاكون: الكاذبون أشد الكذب.

الواهمون وإنَّما يَصدِفُ النَّفْسَ[١] عن هذا الحُبِّ فَسادٌ في التربية، أو خَلَلٌ في الدِّماغ، أو عِرْقٌ كان أجنبياً، فهو يَدفَعُ الدَّخيلَ إلى مُعاداة وَطَنٍ فيهِ وُلِدَ، وفي أرضه نَشَأ، وبِلِبانه تَغَذَّى[٢]، ويجعلُهُ يَحِنُّ إلى أرضٍ لم يعرِفها، سوى أنها كانت مَنشَأَ أَبيه أو آبائه من قبل، ويُشوِّقُهُ إلى قومٍ يَعْرِف عنهُم ولا يَفْهم لغَتهُم، ولا تَجْمَعُهُ بهِم جامعَةٌ، سوى أَنَّهُ كانَ منهُم. ويا ليتَ من كان مِثله يكتفي بِذلك الحنين فلا يَسْعى لانتِقاص وطَنٍ آواهُ ونَصَرهُ، بَعْدَ أَنْ لَفَظَت آباءَهُ بلادُهم لَفظَ النَّواة[٣]، ولا يَعمَلُ لإحباط[٤] كلِّ مَسْعى يُسْعى لإنهاضه.

فإليك، أَيُّها النَّشءُ الكَريمُ، تُبسطُ يَدُ الرَّجاءِ، فانهض، رعاكَ الله للعلمِ، وتخلَّق بأخلاق أسلافكَ، فإنَّ الوطَنَ يُناديكَ: إني لك من المنتظرين.

واحذر أُولئك الدَّسَّاسين[٥] وتَيقَّظ لِحبائِلهم[٦] وتنبَّه لِشرورهم. فهُم داءُ وطَنكَ العُضالُ[٧] والسُّمّ القَتَّال. وما نَهكَ[٨] الوطنَ من قبلُ، وما يعْمَلُ على إضعافه من بعدُ، إلا هؤُلاء المجرمون. فإنهم أعدى الأعداء وأدوى الأدواء[٩].

فكن عَليهم الخطبَ النَّازل، والدَّاءَ القاتِل، والموتَ الزُّؤام[١٠]، والعينَ التي لا تَنام. وإيَّاكَ أن يَطيبَ لك المُقام، قبلَ أَن تريش السهام[١١]، وتَقِفَ بالمرصاد، لأهل الفساد.

فحقِّقِ الأملَ يحيَ بك الوطن.

---

(١) يصدف: يصرف، يقال: صدف عن الشيء، إذا انصرف عنه وأعرض وصرفه عنه وأصدفه عنه: أي صرفه عنه.
(٢) اللبان: الرضاع.
(٣) لفظت: طرحت. واللفظ: الطرح ـ والنواة: بزرة التمر ونحوه.
(٤) إحباط: إبطال.
(٥) الدساس: المرائي بعمله؛ فهو يندس أي يدخل مع الأخيار وليس منهم والدساس حية خبيثة تندس هادئة، حتى إذا أمكنها اللسع لسعت.
(٦) الحبائل: المكايد، وأصل معناها: المصايد.
(٧) العضال: الشديد الغالب.
(٨) نهك: أضعف وأضنى وأتعب.
(٩) أدوى الأدواء: أشدها ـ والأدواء: جمع داء.
(١٠) الزؤام: السريع الكريه.
(١١) تريش السهام: تلزق عليها الريش. وريش السهام كناية عن التهيؤ للرمي ـ والسهام: النبال.

الحرية

إِنَّ للأُمم آجالاً[١] وأَجَلُ كُلِّ أُمَّةٍ يومَ تَفْقِدُ حُرِّيَّتَها.

الحُرِيَّةُ هِبةٌ من الخالق للمخلوق، يُصرِّفُها فيما يَعودُ على نَفْسِه وعلى غيره بالسَّعادَة والخير.

وتَدُلُّ في اللُّغَة على مَعنى الخلوص، فالحُرُّ: خلافُ العبد لخلوصه من الرِّقّ. وحُرُّ كُلِّ شيءٍ: خيارُهُ. والحُرُّ منَ الطِّين والرمل: هو الطَّيِّبُ منهما. ورَمْلَةٌ حُرَّةٌ: أي صالحةٌ للإنبات. وحُرُّ كلِّ أَرْضٍ: أطيبُها.

فأَنتَ ترى أَنَّ هذه المادَّة تَدُل على الطَّهارة والجودة[٢] وخُلوصِ الشَّيءِ ممَّا يُكدِّرُ صفاءَهُ وجُودَتَه.

والحُرُّ ـ بالمعنى المدَنيِّ الصحيح ـ من كان خالصَ التَّرْبية، نَقيَّ النَّفس، متمسكاً بالفضائل، نافراً من الرذائِل، كاسِراً عنهُ قُيودَ العبُوديَّةِ؛ عاملاً بما يطْلُبُهُ مِنهُ الواجب.

إِنَّ الإنسانَ لَمْ يُخلق لِيكُونَ عبْدَ غَيره، ولا ليكُون كُرَةً[٣] تتقاذَفُها الأَهْواءُ[٤] وتَعْملُ على تحريكها أيدي الزُّعماء[٥]، وتُصَرِّفُها حَسبَ رغائِبها[٦] نُفوسُ الكبراء، بل خُلِقَ ليَعْملَ مُنفرِداً ومُجتمعاً بمقتضى السُّنةِ الإلٰهِيَّةِ العامَّة وهي الحريَّة.

ولم تُسْلَبْ هذه النِّعْمةُ الرَّبانيَّة الكُبرى ـ من كثير من الناس ـ إلا بِسَببِ ما

---

(١) الآجال: جمع أجل، وهو مدة الشيء ووقته الذي يحل فيه وينتهي إليه.
(٢) الجودة، بضم الجيم: الصلاح.
(٣) الكرة: كل جسم مستدير، والمراد بها هنا الكرة المعروفة التي يلعب بها.
(٤) الأهواء: الأغراض المختلفة، وهي جمع هوى النفس.
(٥) الزعماء: الرؤساء، والمفرد زعيم.
(٦) الرغائب: المشتهيات، وهي جمع رغبة، وهي الأمر المرغوب فيه.

أفسدَهُ الظّالِمون من نُفُوسِهِم، فلم يَدعوا إلى تَنويرِ أذهانهم بالعلم سبيلاً، لأنَّ الظّالمينَ يَعلمون يقيناً أن العلم الصَّحيح يَهدي إلى معرفة الحقوق، فَهو الشَّرارةُ التي توقدُ في النُّفوس الهمَمَ، وتَرباً بالعاقل[١] أن يكون آلة تُدِيرُها المحركاتُ الاستبدادية.

وقد قال عمرُ بنُ الخطَّابِ لعَمرو بن العاصِ، يَومَ ضرب ولَدُهُ القِبْطيَّ: **«متى استعْبدْتُمُ الناسَ، وقد وَلَدَتهُم أُمَّهاتُهُم أحراراً»**.

ألا، إنَّ الحُرَّ لا يكونُ حُرّاً، إلا إذا تهذّبت نفسُهُ، ونَمت فيها مَلَكَةُ الإرادة، وحَظيَ من العِلم الصحيح بحظٍّ غيرِ قليل، ثُمَّ أقدَمَ على تحرير نفسِه من رِبَقِ[٢] من يملكها بالقُوَّة والجَبروت فمن لم يكن كَذلكَ فقد شَسعتْ بيْنَهُ وبيْن الحُرِّيَّةِ المساوِفُ[٣] وكان بينهُما مَفاوِزُ جَمَّة المخاوف[٤].

ليسَ بالحُرِّ من اتخذَ الحُرِّيَّةَ عُنواناً للرَّذائل؛ وطريقاً للمفاسِد، وسيفاً يَجتابُ به أردِيَةَ العفّة[٥] ورُمحاً يَطعَنُ بهِ الفضيلة، وسهماً يُمزّقُ به أَعراضَ الناس.

وليس من الحريَّة أن يفعلَ الإنسانُ ما يضُرُّ به وبغيرِهِ: من إسراف في الأَموال، وإضاعةٍ للإنسانيَّة، وإباحةٍ لِلمُنكرات، وسعي في إفسادِ الهيئة الاجتماعيَّة، بما يأتيهِ من ضُروب الإيذاءِ والنَّميمة والغِيبَةِ[٦] والعُدوان؛ وغيرِ ذلك من نقائِص الأَخلاق.

إنَّ كثيراً من الناس يَدَّعي الحرَّية، وقد لَبسَ لَبُوسَ[٧] العُبُوديَّة. فهوَ أَسيرٌ لِشهواتِه، عَبدٌ لزعمائهِ وأُمرائه، مملوكٌ لنَفْسِه ٱلأَمارة، تدْفعُهُ إلى

(١) ترباً بالعاقل: ترفعه، يقال ربأ به عن كذا: رفعه عنه فلم يرضه له.
(٢) الربق: جمع ربقة وهي العروة من حبل فيه عدة عرى تشد به البهائم.
(٣) شسعت: بعدت ـ المساوف: جمع مسافة.
(٤) المفاوز: الأماكن المهلكة، والمفرد مفازة ـ وجمة: كثيرة.
(٥) يجتاب: يقطع ـ والأردية: جمع رداء، وهو الثوب.
(٦) الضروب: الأنواع ـ والنميمة: نقل أحاديث الناس لإيقاع المفاسد. والغيبة: أن تذكر الناس بما يكرهون.
(٧) اللبوس: ما يلبس.

الموبِقات فيُجيب[١] وتحفِزُهُ إِلى السِّعاية بغيره[٢] والضَّرر به فيَطيرُ إلى تَلْبيتها[٣]. وإن دعاهُ داعي العقل إلى ما يُحييه، وأَهابَ به حادي الوِجدان[٤] إلى ما يُعليهِ، وناداهُ مُنادي الشَّهامة إلى ما يَنهضُ بِشعبِهِ ويُقوِّيهِ، تَصامَّ عن النِّداءِ[٥] أو سَلكَ طريقَ المِراءِ[٦]؛ ثمَّ هو، بعدَ ذلك، يدَّعي أنَّهُ إنسانٌ حرّ. وما الإنسانيَّةُ والحريَّة إلا عاملانِ للعُمران، وركنانِ للاجتماع.

أيَّ أُمةٍ أَرادت أَن تكونَ في ذُروةٍ من الحضارَة سامية[٧] ومَكانَةٍ من السَّعادة عالية، فَعَليها أَن تُربيَ أَفرادها على الحريَّة الصَّحيحَة، وتُغذِّي أَبناءَها بِدَرِّها الطَّهور الخالِص[٨].

فانهَضوا، أَيها الناشِئون، إلى الحريَّة الخالِصة، الخاليةِ من شوائب المدَلِّسين[٩] فإنَّها سَبيلُ النَّجاح، وهي الحياةُ السَّعيدة.

---

(١) الموبقات: المعاصي المهلكات.
(٢) تحفزه: تسوقه وتدفعه ـ والسعاية: الوشاية.
(٣) طار إلى الأمر: أسرع إليه ـ والتلبية: الإجابة.
(٤) أهاب به: ناداه وزجره وصرخ به ـ والحادي في الأصل: من يحدو الإبل أي يسوقها ويغني لها لتقوى على السير.
(٥) تصام: أظهر الصمم؛ أي الطرش وليس فيه.
(٦) المراء: الجدال والمنازعة واللجاج.
(٧) الذروة: أعلى كل شيء ـ والحضارة: المدنية.
(٨) الدر: اللبن.
(٩) الشوائب: الأخلاط، والعيوب، والأدناس ـ والمدلس: من يظهر الشيء على خلاف ما هو عليه، وأصل التدليس: كتم عيب السلعة عن المشتري.

أنــواع الـحـريـة

إنَّ للحُرِيَّة أنواعاً: منها حُريةُ الفرد، وحُريةُ الجماعة، والحرية الاقتصاديَّة، والحُريَّةُ السِّياسيَّة. ولا تَقومُ لشَعْبٍ قائمةٌ إلا بهذه الحريات الأَربع.

فَحُرِّيَّة الفَردِ ـ وقد تُسمَّى الحرية الشّخصيَّة ـ أَمر عَظيمُ الخَطر[١]. وعليه تَتَوَقَّفُ حريَّة الجماعة، لأَن الجماعة تَتأَلَّفُ من الأَفراد. فحُريَّتُها لا تكونُ إلَّا بحرية أَفرادها فَعَلى الأُمّة التي تَوَدُّ أن تكون حرةً أن تَسعى لِتربية أَفرادها تَربيةً حُرَّة، لِيتكَوَّنَ منها مجموعٌ حُرّ.

وحُريةُ الفَرد تَشمَلُ حرية القول والكِتابة والطِّباعة ونَشْرِ الفِكر، من غير رقيبٍ ولا مُؤَاخذ، على شرط أن لا يُخِلَّ ذلك بحريَّةِ غيره.

فهو حُرٌّ أن يَعتقِدَ ما يشاءُ: من العقائد الدينية والعِلمِية والسياسية والاجتماعية، وأن يجاهرَ بذلك، إلَّا إن دعت مُجاهَرَتُهُ إلى انفِصام عُروةٍ من عُرى الاجتماع[٢]، وأن يتصرَّفَ بما يَملِكُ: من نَقْدٍ وعَقارٍ[٣] وغيرهما، إلّا إن أدى عمَلُهُ إلى السَّفَه[٤]، فَلَهُ حينئذٍ حُكمُ المحجورِ عليه[٥].

صَفوةُ القَول في حُريّة الفَردِ، أَنها أمرٌ يَنْتهي حَيثُ تَبتدئُ حُريَّة سواهُ. فالواجبُ على الفردِ أَن يُحافِظَ على حُريّة غيره، كما يُحافِظُ على حُريّة نَفسه.

وحُريّة الجماعة: أن يكونَ لها حقُّ الاجتماع أَيْنَ شاءَت ومتى شاءَت، إلَّا إن كانت مُسلَّحةً، فَتُمنَعُ من ذلك. لأَنَّ عَملها هذا رُبَّما أَدَّاها إلى ما يُنافي الحريَّةَ الصَّحيحَة، وأَن يكونَ لها الحَقُّ في تأليفِ الجمعِيَّات على اختِلاف

---

(١) الخطر، الشرف وارتفاع القدر.

(٢) الانفصام: الانقطاع ـ والعروة: ما يوثق به ويعول عليه، وأصلها مدخل الزر.

(٣) النقد: الدرهم والجمع نقود ـ والعقار، بفتح العين: الدار والأرض ونحوهما.

(٤) السفه: خفة العقل، والجهل والطيش.

(٥) المحجور عليه: الممنوع من التصرف بماله بسبب السفه أو الجنون أو التبذير.

مَشارِبها: من عِلمية وأدبيةٍ ودينية وصناعيةٍ وخيريَّة وسياسية، على شَرط أَن تُطابِقَ أنظِمتُها[١] ما يَسنُّهُ مَجلِسُ الأُمّة من القوانين الدُّستورّية. لذلكَ وجَبَ أَن يكونَ رجالُ هذا المجلِس مِمَّن عُرفوا بالحرَّية، والعلم، والصِّدق، وصِحَّة الوجدان، والعقل، والرَّويّة، كيلا يَسُنُّوا للأُمة ما يُقيِّدُ حريَّتها، ويُنافي مَصلحَتَها.

والحريَّة الاقتصاديةُ، هي حياةُ الأُمّة الماديَّة. فإن لم تُطلق لها حُريةُ التِّجارةِ والزراعَةِ وإنشاءِ المصانِعِ واستِخراجِ المَعادن، للانتفاع بما تُكنُّهُ الأَرضُ[٢] من مواردِ الرِّزق كانت حياتها كأمْرِئ شُدَّ وثاقُهُ[٣] ووُضِعَ الحبلُ في عُنُقِهِ، وقد مَسكَ بِطَرفَيهِ رَجُلانِ ذَوا بَأسٍ شديدٍ، فهُما يُهدِّدانه بالخَنق ويَتوعَّدانِهِ بالمَوت، وهو يَترَقَّب[٤] أَن تَفيضَ روحُهُ من ساعَةٍ إِلى أُخرى.

إنَّ أُوروبّةَ لم تَقبِض على ناصِية الثَّروة[٥]، إلا بعد أن أطلقت الحريَّة الاقتصادية من قُيُودها، معَ ما أطلَقَتْهُ من أَنواع الحريّة ففي يَدها اليومَ أَرواحُ المشارقة فإن شاءَت قَتلهم مَنعَت عنهم أموالها، ورَدَّت إليها ما في بلادهم من ذَهَبها.

إنَّ بلادَنا غَنِيَّةٌ بِتُربتها ومعادِنها ولكنها فَقيرةٌ برجالها الأَكْفِياءِ لإِسعادها[٦] والنُّهوضِ بها.

يأتي الأَجنبيُّ بلادَنا، فَيَبْتاعُ أَرضَنا[٧]، ويَنْتَفِعُ بخيراتِها، أَوْ ينالُ فيها «امتياز»، فَيَستَثمرُ مَواضِع منها، ويَستخرجُ ما في بُطونِها من أَجنَّة المعادِن[٨]،

---

(١) الأنظمة: القوانين.
(٢) تكنه: تخفيه وتستره.
(٣) الوثاق، بفتح الواو: ما يشد به الأسير من حبل وقيد ونحوهما.
(٤) يترقب: ينتظر.
(٥) الناصية: مقدم الرأس.
(٦) الأكفياء: من فيهم الكفاية، أي الأهلية، والمفرد كفي. وأما الأكفاء فهم الأمثال، والمفرد كفؤ بمعنى المثل والمماثل، وهو من الكفاءة، بمعنى المماثلة. فبين الكفاية والكفاءة فرق، وأكثر الناس لا يفرقون بينهما ـ توهماً أو خطأ.
(٧) يبتاع: يشتري.
(٨) الأجنة: جمع جنين وهو المستور من كل شيء، ولذلك يسمى الولد ما دام في بطن أمه جنيناً.

التي تُدِرُّ عَلَيْه الذَّهَبَ والفِضَّة، ونحنُ عن ذلكَ لاهون، وبأَهوائِنا مُشتغلُون[١]، وعلى فَصم عُرى الوحدَةِ عاكفون.

والحُريّة السياسيَّة: أَن تَكُون الأُمّة مُستَقِلَّةً استقلالاً تاماً بِكُلِّ شأنٍ من شُؤُونها، غيرَ مُقيَّدَةٍ بسلاسِل أُمّة غيرها. فهي التي تَضَعُ أَنظِمَتها التي تُلائم مِزَاجها، وتُمضي العُهودَ مَعَ من شاءَت من الأُمم، وتَضرِبُ الضَّرائِبَ على ما يَردُ إليها من سِلعِ الدِّيار الأَجنَبية، وتَبذُلُ الوُسْعَ لِتنشيط الأَعمالِ الزراعية والاقتصاديَّة ودورِ الصِّناعات الوطنية، إلى غير ذلك من مُمَيِّزات الأُمم المستقِلة.

ولا تَتِمُّ الحريّة، إلا إذا وُفِّقَت الأُمّة لِتثبيت أركان الحريّات الثلاث التي تَقدَّمَ ذِكْرُها. فإن لم تكُن الأُمّة كَذلك كان سَيْرُها نحو التَّرقي بَطيئاً، وأَنَّى للظَّالع أَن يُدركَ شَأوَ الضَّلِيع[٢].

ويَجبُ على الأُمّة ـ إِن أَرادتِ الحياة ـ أن تَسْعَى لِبَثّ أَنواع الحريّة الأَربعَةِ في نُفوسِ أَبنائها. فإِنَّ الأُمَّة، إِن فَقدَت حُرّيتَها ـ التي هيَ قِوامُ حياتِها ـ كانت أَقرَبَ إلى الانحِلال والزَّوال منْها إلى البقاء.

فَتشدَّد، أيها النشءُ الكريم، وتَعَلَّم دروسَ الحريّة الصَّحيحة، واحذَر أن تَظُنَّ الحريّة ما يَظُنُّهُ مَن لا خَلاق لهم. ثم أسرع لِنشرها في أُمَّتِك. واجهدْ نَفْسَكَ في تحرير بلادِكَ من رِقّ العادات السَّافِلَة، والأَخلاق الفاسدة. واتعبْ لتكْسِرَ عنها أَغلالَ العُبوديّة التي تَنوءُ بها[٣]. فَعَسى أن تَنْشَطَ من عِقالها[٤]، وتَطْرَحَ عنها قُيودَها، فَتكونَ بِذلك أُمّةً حُرَّةً تَسْتطيع البقاءَ أَمام مَدَنِيَّةِ الأُمم.

فإِنَّ للأُمَم آجالاً، وأَجَلُ كُلِّ أُمةٍ يومَ تَفْقِدُ حُرِّيّتها.

---

(١) الأهواء: جمع هوى وهو ميل النفس الفاسد.

(٢) الظالع: من يغمز في مشيه لشبه عرج فيه ـ والشأو: الغاية ـ والضليع: القوي الشديد الأضلاع. والمعنى لا يصل الضعيف إلى ما يصل إليه القوي.

(٣) الأغلال: القيود ـ وتنوء بها: تثقلها.

(٤) تنشط من عقالها: تحل منه. والعقال: حبل يعقل به البعير في وسط ذراعه.

الإرادة

ما رأَيتُ أحداً جَزَمَ إرادتَه[١] على أَمرٍ إلَّا كانَ، ولا عَزَمَ شيئاً[٢] إلَّا وَصَلَ إليه.

ذلك، أَنَّ الإِرادَةَ رغبَةٌ في الأَمر، يَتبَعُها سعيٌ إليه، وبَذلُ جُهْدٍ لِتحقيقِهِ، وتهيئةُ الأَسباب الممكِنَة لإِيجاده، ثم إِقدامٌ على عمله. ولا شكَّ أَنَّ الأَمرَ كائنٌ متى اجتمَعَ له كُلُّ هذه الدواعي[٣].

وقد عَبَّرَ الصُّوفيَّةُ عن ذلكَ بِقَولهم: «إنَّ لله عِباداً إذا أرادوا أرادَ» فكأَنَّهُم جَعَلوا إرادة الله تابعةً لإِرادةِ المُريدِ من عباده. وهم لم يَعْنوا بذلك إلا ما شَرحناه فإِنَّ المسبَّباتِ مرهونَةٌ لأَسبابها. وقد جَعَلَ الله حُصولَ المُرادات مُتوقِّفاً على جزم الإِرادة.

وقد وَرَدَ في الحَديث: «**إنما الأعمال بالنِّيَّات**» ولا رَيْبَ[٤] أَنَّ من صَدَقَ العزيمة وأحسَنَ النِّيَّة، ووجَّهَ الإِرادة، وأَقدَمَ على ما يَرغبُ فيه بقَلْبٍ مُريدٍ، نالَ ما يَتمَنّاه، وفازَ بمُشتهاه، لأَنَّ المسبَّبَ ـ وهو المراد ـ كائنٌ عندَ وجُودِ السَّببِ ـ وهو الإِرادة ـ.

والإِرادة: تَربيةُ النَّفسِ على الحَزم والإِقدام على الأَعمال الممكِنة حتى تصيرَ مَلَكَةً من مَلَكاتِها[٥]. وهي سعادةٌ لِمن تَخَلَّقَ بها ما وراءَها سعادةٌ. فيها يَعملُ الإِنسان، وبها يَترَقَّى، وبها يَترُكُ ما أَلِفَهُ من العادات الضَّارَّة والأَخلاق الشَّائِنَة[٦]،

---

(١) جزم الأمر: قطع به قطعاً لا عودة فيه.

(٢) عزم الشيء وعزم عليه: عقد ضميره على فعله وقطع عليه وأمضاه من غير تردد فيه.

(٣) الدواعي: الأسباب.

(٤) لا ريب: لا شك ولا شبهة.

(٥) ملكة: صفة راسخة.

(٦) الشائنة: العائبة.

وبها يكون أَميراً على نَفْسِهِ، سُلْطاناً على مَلَكاتِه، وبها يكُونُ إِنساناً كُلَّ الإِنسان. فإِنَّ الإِنسان الكاملَ من لا يَصُدُّه عن مُراده الممكنِ صادٌّ، ولا تَقِفُ شَهَواتُهُ وعاداتُهُ عَقَبَةً[١] في سبيل المُراد.

إِنَّ الأنبياءَ والفلاسفَةَ وَعُظماءَ الرِّجال، لم يَستطيعوا أن يَبُثُّوا ما تَوَخَّوْه[٢] من العقائد والتَّعاليم، ولم يَصلوا إِلى ما أرادوهُ من الأَعمال ـ التي كُتبتْ بالنُّورِ على جَبين الدُّهور ـ إِلا بالإِرادة. فإِنَّ من مُقتضياتها الحزمَ والثَّباتَ على العمل حتى يكُون، ولو أَصابهُم في هذا السَّبيل من المصائب ما يَدُكُّ الجبال[٣]، ونابهُم من النَّوائب ما يَفُلُّ الحديد[٤].

وإِنَّ ما نَراهُ من خيبة أَعمالِ كثيرٍ من العاملين، ناتجٌ من إِهمال تربية الإِرادةِ فيهم. فهُم لا يسْتطيعون الثباتَ على ما يقومون به، بَل يُوَلُّونَ الأَدبارَ[٥] عنْدَ أَوَّلِ صَدمةٍ تَصدِمُهُم. وإِنما الصَّبْرُ عنْدَ الصَّدمةِ الأُولى.

الإِرادةُ توجبُ الصَّبر، وإِباءَ التَّرَدُّدِ في الأُمور، واحتقارَ الصُّعوباتِ التي تَعْتَورُ المشروعات المفيدة[٦]. وذلك يوجبُ النَّجاحَ في الأَعمال بَتَّةً[٧].

متى رَسَخَت الإِرادةُ في النَّفس تَحكَّمَ العَقْلُ، وسَقَطَ هَوى النفس الأَمَّارة، فَكانَ الإِنسان في أَعلى مَراتِبِ الكمال. لأَنَّ مَلَكَةَ الإِرادة تَطبَعُ في النُّفوس الفضيلة حتى تكونَ صالحةً مُهذَّبَةً سعيدة.

ومتى كَثُرَ في الأُمَّة عَدَدُ الذينَ رَسَخت فيهم هذِه المَلكة، سارت في العُمْران والتَّرقِّي والمَدَنِيَّةِ أَشْواطاً[٨] عظيمة. وكُلُّ أُمةٍ تنهار دعائم مجدِها[٩]،

---

(١) العقبة: المرتقى الصعب.
(٢) يبثوا: ينشروا ـ وتوخوه: قصدوه.
(٣) يدك: يهدم.
(٤) نابهم: أصابهم، والنوائب: المصائب ـ ويفل: يكسر.
(٥) يولون الأدبار: ينهزمون.
(٦) تعتور: تأتي مرة بعد أخرى.
(٧) بتة. قطعاً. بت الأمر: أمضاه بلا تردد.
(٨) الأشواط: جمع شوط وهو الجري مرة إلى الغاية. والسباق قد يكون بشوط أو أكثر.
(٩) تنهار: تسقط ـ والدعائم: جمع دعامة وهي عماد البيت ونحوه.

وتَتقَوَّضُ أَراكينُ عِزِّها[١]، يكون ذلك من قَحط الرجال[٢] ـ رجال الإرادة ـ فيها.

أَلا، إنَّ من ضَعُفَت إرادَتُهُ كان صغيرَ النفس، وضيعَ المنزلَة، تَلعَبُ بهِ الأَهواءُ[٣]، وتَعبَثُ[٤] به إرادات الصِّبْيان، بَلهَ الرجال[٥]. فيكون كُرَةً تتقاذَفُها الأَغراض، وهَدَفاً تُراشُ لَه السِّهام[٦]. فَإِن أَتاهُ آتٍ بأمر، فَحَمله على الاعتراف بأفضلِيَّتهِ، أَجاب. ثم إن جاءَهُ آخَرُ فَدَعاهُ إلى القول بأَرذَلِيته، لَبَّى. فَهو لا يَسْتَقِرُّ على حالٍ، بل تَتنازَعُهُ إراداتُ الرجال وتَعتورُهُ دَواعي الأَهواء. إذ ليس لَهُ عاملٌ من نَفسِه يَدفَعُ الباطِلَ بالحَقِّ ولا قَلْبٌ ذكيٌّ يُفَرِّقُ بينَ الصَّحيح والفاسد. ومن كان كذلك فأَحْرِ به[٧] أَلّا يكون إنساناً كاملاً.

فعلى الأُمَّة التي تَوَدُّ حياةً طَيِّبة وعيشةً راضية، أَن تُرَبِّي مَلَكَةَ الإِرادة في نُفوس أَطفالها، فإِنَّ الإِرادةَ سبيلُ السَّعادة.

يا مَعْشَر النَّاشِئينَ، أَنتم عمادُ الأُمة، أَنتم دِعامَةُ مَجدِها، أَنْتم رِجالُها في الآتي، فَتَعوَّدوا أن تَكونوا مُريدين. ولا تَعبئوا بما يَحولُ بَيَنْكُم وبين ما تريدون. فخُلُق الإرادة رأسُ الأَخلاق وهو عَيْنُها المُبْصرة، وقَلبُها المفكِّر.

جَرِّدوا الإِرادة يَسهُلِ المُراد، فإِنَّ لله عِباداً إذا أرادوا أَراد.

(١) تتقوض: تنهدم ـ والأراكين: جمع أركان.
(٢) قحط الرجال: فقدانهم أو قتلهم.
(٣) الأهواء: الميول الفاسدة، وهي جمع هوى النفس.
(٤) تعبث: تلعب.
(٥) بله: اسم فعل أمر بمعنى دع واترك.
(٦) الهدف: ما ينصب ليرمى إليه ـ وتراش: يلزق عليها الريش. وريش السهام: كناية عن التهيؤ للرمي.
(٧) أحر به: أجدر به.

الزعامة[1] والرئاسة

قَضَتِ السُّنَّةُ الإلهيَّة[2] أَن يكون في كُلِّ نوع من المخلوقات رئيسٌ ومرؤُوس، وسائسٌ[3] ومَسُوسٌ[4]، كَيلا تَتَفَرَّقَ الآراءُ، وتَتشَعَّبَ الأَهواءُ[5]، فيكون من ذلك تَشَتُّتُ الشَّمل، وتَوهُّنُ[6] الحَبل، وافْتراق الجماعة، وشَقُّ عصا الأُلفة.

وكُلُّ قوم لا رئيس لهم يَرجعون إليه في المشكلات، ويَصمدُونَ إليهِ في المعضِلاتِ[7]، يُضْحونَ وقَد ركِبوا مُتونَ الشَّوامِس[8] ويَبيتونَ في ليلٍ من الحيْرةِ دامس[9].

إذا كانت الرُّوحُ قِوامَ الجسم، فالرُّؤَساءُ في كُلِّ أُمَّةٍ هم روحُ اجتماعها. فإِن فَسدوا فَسَدت، وإِن صَلَحوا صَلَحت، لأَنَّ الأُمَّةَ لا تَقومُ لها قائمةٌ إلا إذا قامَ فيها زُعماءُ يَنْهضُون بها إِن عَثَرَت، ويُقوِّمونها إِن اعوَجَّت، ويأْخُذون بيدها إِن سقَطَت، ويُرشِدونها إِن ضلَّت.

ولا يَكونُ الرَّئيسُ رئيساً حقًّا، حتى تَتوَفَّرَ فيه شروطُ الرِّئاسة من العقل والعلم، وصِحَّةِ الوجدان، والمروءَة، والشَّهامة، وطهارة السَّريرة، وحُسْنِ

---

(١) الزعامة، بفتح الزاي: الرئاسة والشرف.
(٢) السنة الإلهية: النظام الإلهي أو الشريعة الإلهية التي اختطها الله لعباده.
(٣) السائس: مدبر أمور الدولة والرعية.
(٤) المسوس: الرعية التي يدبر أمورها السائس.
(٥) تتشعب: تتفرق.
(٦) التوهن: الضعف. وتوهن الحبل، كناية عن ضعف القوة.
(٧) يصمدون: يلجئون ويقصدون ـ والمعضلات: الأمور المشكلة.
(٨) المتون: الظهور، والمفرد متن ـ والشوامس: الدواب التي لا تمكن الراكب من ظهرها لسوء خلقها، والمفرد شامس وشامسة، والشموس ـ بفتح الشين ـ كالشامس.
(٩) دامس: شديد الظلمة.

السِّيرة، والكرم، والبَذل الجَمّ في سبيلِ إحياءِ الأُمَّةِ ونشرِ العلم في ربُوعها. فمن نَهجَ هذا المنهجَ[١]، وقام بهذه الأَعباء[٢]، كان عَيناً من الأَعيان، ورئيساً من الرؤَساء، وزعيماً من الزُّعماء. وإلا فهو على الوجاهة والرِّئاسةِ والزعامة والشَّرَف طُفيليٌّ[٣] دَخيلٌ.

يَتهافَتُ[٤] كثيرٌ من ضعفاء العقُول على الرِّئاسة، وليس لهم من شروطها حَبَّةُ خَردَل، وقد نَسُوا أَن رئيسَ القومِ لسانُهم النَّاطِق، وقَلْبُهُمُ المفكِّرُ وصَمَدُهُم في الشدائد[٥] وحِصنُهم عندَ النوائبِ، ومَوئِلُهم[٦] إن عَضَّهم الدَّهر، وسَنَدهم في كُلِّ جليل من الأَمر.

كانَ للأُمة عُصور لم يكن يرأَسُها[٧] فيها إلا السَّادة المخلِصون، والبَرَرَةُ[٨] المصلِحونَ. ثم هَوَت بها كَفةُ الميزان فَرَأَسَها الفَسَقَةُ الأَدنياء، دعاةُ الجهْلِ والعِصيان، والطُّغاةُ السُّفهاءُ، وأَولِياءُ الشيْطان.

أَلا، إِنَّ الزمانَ قَد استَدار، فَقد تَنبَّهَت الأُمَّة من رَقدتها[٩]، واستَيقظَت من غَفلَتِها. فهي لا ترضى أن تَبقى في أَسر مَنْ يَعملُ على هلاكِها، ويَرغَب في استعبادها. ولا تُقِرُّ بالزَّعَامَةِ والرِّئاسة إلا للمُصلحين الصَّالحين، الذين يَرغَبون في الموت لِتحيا الأُمَّة، ويُؤْثِرونَ[١٠] المتاعِبَ حبًّا لراحتها ويَرضَون بالشقاء رغبَةً في سعادتها.

فَتَقدَّم، أيُّها الناشئُ، إلى العلم الكامل، وتَمسَّك بالخُلُق الفاضل، وأقدِم

---

(١) نهج: سلك ـ والمنهج: الطريق الواضح.
(٢) الأعباء: الأحمال الثقيلة.
(٣) الطفيلي: من يدخل في أمر لم يدع إليه، وهو نسبة إلى طفيل: رجل من أهل الكوفة كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها. ويسمون من يفعل ذلك بالوارش أيضاً، كما يسمون من يدخل على القوم في شربهم فيشرب معهم من غير أن يدعى بالواغل.
(٤) يتهافت: يتساقط، وأصله التساقط شيئاً بعد شيء.
(٥) الصمد: من يصمد إليه الناس، أي يقصدونه بحاجاتهم.
(٦) الموئل: الملجأ.
(٧) رأسهم يرأسهم: صار رئيساً عليهم.
(٨) البررة: الأخيار.
(٩) رقدتها: نومها.
(١٠) يؤثرون: يقدمون ويفضلون.

على العَمَلِ الصَّالِح، مُسْتَرشداً بالعَقْلِ الرَّاجح، لِتَكون زَعيمَ[١] قومِك ورئيسَ عَشيرَتِك.

وإيَّاكَ أَن تُحَدِّثَكَ نَفسك بالزَّعامة، أو يَغُرَّك رونَقُ الرِّئاسة، وأَنتَ لَستَ لَهما بأهل، فَتجلُبُ إلى قومك الويل، وإلى نفسك الذُّل.

لا يَصْلُحُ القَومُ فَوضى لا سَراةَ لَهم
ولا سَراةَ إذا جُهَّالُهم سادوا
والبيتُ لا يُبْتَنى إلا لَه عَمدٌ
ولا عمادَ إذا لم تَرسُ أوتاد
فَإن تَجمّعَ أَوتادٌ وأعمِدَةٌ
يوماً فَقد بلَغوا الأَمرَ الذي كادوا[٢]

(١) الزعيم: سيد القوم ورئيسهم.
(٢) كادوا: أرادوا. ومن قوله تعالى: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ أي أُريد إخفاءها. وقول الشاعر: «كادت وكدت وتلك خير إرادة» أي: أرادت وأردت، وليست بمعنى قرب لأنها ليست هنا من أفعال المقاربة.

عشاق الزعامة

إذا كانت الأمّةُ، التي لا زعيمَ لها يُرشِدُها، تَسير في مَهْمَهٍ من الفَوضى مُتشابهِ الأَعْلام[١]، مَخُوفِ المسالك، بعيدة أَرجاؤهُ[٢]، كأَن لونَ أرضِهِ سَماؤُهُ، فَإِنَّ الأُمَّةَ التي يَكثُرُ عُشَّاقُ الزَّعامةِ فيها، ويَنمو عَدَدُ مُحبي الرئاسةِ في مجموعها، أَكثرُ منها فَوضى، وأَشدُّ حَيْرةً، وأَعظمُ ويلاً.

حُبُّ الرئاسة داءُ هذا الشَّرقِ الوبيل[٣]، والتَّهافُتُ على الزَّعامة مرضُهُ المزمنُ. وما من زَعيمٍ يَقومُ فيه، إلا خَفقَت الغيرةُ في قُلوب قَومه، واحتدَمَ الحسَدُ[٤] في نفُوسهِم، فَتَراهم يَعْملون على السّعاية به[٥]، ويَبْذُلون ما لَدَيهِم من قُوَّةٍ لإِسقاطه، ويُناصِبُونَهُ العَداوة[٦] ويُصارحونهُ بالأَذى. فإن كان زعيماً حَقاً، فهو لا يأْبَهُ لمناوأَتِهِم[٧] ولا يَعبأ بمصادمتِهِم، بل يَثبُتُ على ما يُريدُهُ لقَومه من الخير ثَباتَ الرِّجال، لا يُبالي الأَهوال، ولا يَكترِثُ للصُّعوبات، ولا يَحفَلُ بالمخلوقاتِ، وإن تَزَعْزع لأَوَّلِ صَدمة، كان ضعيف الإِرادة، بَليدَ النَّفس. وأَحرى بمَن كانَ كذلك أن لا يكونَ رئِيساً للقوم!.

ما رأَيتُ أَحَداً لم تُحدِّثهُ نفسُهُ بالزَّعامة! وأَهلُ الزَّعامة قليلٌ. فَهَل الزَّعامةُ متاعٌ يُشرى؟! أو ثوبٌ متى لَبِسه الإنسانُ صارَ زعيماً؟!.

إن الزَّعيمَ هو روحُ الأُمّة. وهل تَرضَى أُمةٌ أن يكُونَ زعيمُها هَيَّ بنَ بَيّ[٨]، أو

---

(١) المهمه: الفلاة المقفرة المهلكة ـ والأعلام: الجبال، والمفرد علم.
(٢) الأرجاء: الأطراف والنواحي، والمفرد رجا.
(٣) الوبيل: الشديد.
(٤) احتدم: اشتعل.
(٥) السعاية: الوشاية.
(٦) يناصبونه العداوة: يظهرونها له. ويقال ناصبه أي قاومه وعاداه.
(٧) لا يأبه: لا يلتفت ولا يبالي ـ والمناوأة: المعاداة والمعارضة.
(٨) هي بن بي، وهيان بن بيان: كناية عمن لا يعرف ولا يعرف أبوه.

الضَّلالَ بنَ فَهلَلَ(١)، أو الجَهلَ ابنَ الغباوة، أو الفُسُوقَ ابنَ العِصيان!.

كلُّ قوم رأَسَهُم أَوْشَابُهُمْ(٢)، وتَحَكَّم فيهِم جُهلاؤُهم وكان زُعماءَهُم أنذالُهم، كان الخرابُ عاقِبَتَهُم، والدَّمارُ(٣) مُنْتهاهم.

لَيسَ الرَّئيسُ من يبذُلُ المال، ويَبُثُّ الرجال، لترغيب الناس في رئاسته، والالتِفاف حولَ عَلم زعامته. وإنما الرَّئيسُ من كانت الرِّئاسةُ خُلُقاً من أخلاقه. وذلك لا يكُونُ إلا في رَجُلٍ مَعروفِ الفضيلة آبي الرَّذيلَة(٤)، زكيِّ الوِجدان، ثابتِ الجَنان(٥)، عالي الهِمَّة، نَقِيِّ الذِّمَّة ذكِيِّ الفُؤاد، رفيع العِمادِ(٦)، تُرابيِّ النَّفسِ، عِصامِيِّها(٧) واضح الأَخلاق، طاهرِ الأعراق(٨) عالِم بما تحتاجُ إليهِ الأُمَّة، ساعٍ نَحوَ ما يُفيدُها ويُعلي شأْنَها. ومن كان كذلكَ سادَ الناسَ وزَعَمَ عليْهم(٩)، وكانت لهُ الكلمةُ النافذةُ فيهِم، والمقامُ الأَرفَعُ بَينَهُم.

عَجبْتُ واللهِ ـ وَحُقَّ لي العجبُ(١٠) ـ لِرَهْطٍ ليسوا في العيرِ ولا في النَّفير، يَسعونَ السعْيَ الحثيث(١١) لِتُقرَّ الأُمَّة لهم بالزَّعامة، وهم أهوَنُ عَلَيها من كُلِّ هَيِّن، ولا ميزَةَ لهم تَرْفَعُهم إلى المَقام الذي يَسْعَوْنَ إليه. وقد اتَّخذوا الوقيعَةَ(١٢) في أَفاضل الأُمَّة، وأَكْلَ لُحومهم، وتلْطيخَ أعراضهِم، سبيلاً إلى ما

---

(١) فهلل: اسم للباطل، وهو غير منصرف للعلمية ووزن الفعل باعتبار أنه على وزن جلبب.

(٢) الأوشاب: الأخلاط من الناس كالأوباش، والمفرد وشب، بفتحتين. ومفرد الأوباش وبش، بفتحتين أيضاً.

(٣) الدمار: الهلاك والخراب.

(٤) آبي الرذيلة: ممتنع عنها.

(٥) زكي الوجدان: صالحه وطيبه ـ والجنان: القلب.

(٦) ذكي الفؤاد: متوقده وفطينه ـ ورفيع العماد: سيد شريف.

(٧) العصامي: من يفتخر بعمل نفسه، وعكسه العظامي وهو من يفتخر بآبائه، وهو نسبة إلى عصام بن شهيرة الذي قال فيه الشاعر: «نفس عصام سودت عصاما». وفي المثل: «كن عصامياً ولا تكن عظامياً» أي اشرف بنفسك كعصام لا بآبائك الذين صاروا عظاماً.

(٨) الأعراق: الأصول.

(٩) زعم عليهم: تأمر عليهم وسادهم.

(١٠) حق لي العجب، بصفة المجهول: أي وجب علي.

(١١) الحثيث: الشديد السريع.

(١٢) الوقيعة: السب والشتم.

يقصدونَ إليه، ليخلُوَ لهم الجوُّ، فيكُونوا هُمُ الرُّؤَساءَ والزُّعماءَ. ولم يَدْروا أَنَّهُم بِعمَلِهِم هذا يَنكَشِفُ عَوارُهم[١]، ويَفتضحُ أَمرُهم، فتزدادُ الأُمّة منهم نُفُوراً، وتُوسعهُم احتِقاراً وبُغضاً.

وهناكَ رَهطٌ، متَى أخفقَ في سعيِه، ولم يَنل من الزَّعامَة ما يُريد، قام بِاسم الدِّين، وهو أجحدُ الجاحدين، فَنسبَ إلى غيره الكُفرَ والإلحاد[٢]، والضَّلالَ والفَساد، واتَّخذَ لأَهوائه الضَّالة سافلَ الوسائِلِ، لِيصدِفَ[٣] الأُمّةَ عن ذلكَ الزَّعيم العامل، ويَصرفَ وجُوهها عنهُ إليه، ويجعلَ أَمرَها بين يديه، ورُبما صَدَّقهُ بعضُ السُّذَّج[٤] من العامَّة، لأنَّه يضربُ على وتَرِ الدِّين. ولكنَّ المجموعَ لا يَلتفتُ إليه، ولا يُعَوِّلُ علَيه، ولا يَعبأ بترَّهاته[٥] ولا يَجنحُ إلى مفترَياته[٦].

فأعيذكُم بالله، مَعشرَ الناشئينَ، أن تتَّخذوا للزَّعامة أَمثالَ هذه الأَسباب، فتتقطَّعُ بكُم الأَسبابُ[٧]، وتنفِرُ منكُم الأُمّةُ، ويبعدُ ما بينكُم وبينَ الفَضيلة.

إِياكُم وحُبَّ الرِّئاسة، إلا إذا أتتكُم منقادةً تُجرِّرُ أَذيالها، بما لكم عندَ الأُمّة من جميل الصُّنع، وطَريفِ الفضائلِ وتالدِها[٨].

واحذَروا، إن قام فيكم زعيمٌ هو أهلٌ للزَّعامة، وكانت قُلوبُكم مُطمئنَّةً إليه، أن يَغُرَّكُمُ الحسَدُ. فَتنهضُوا إلى إسقاطه، وتعملوا على صرف وجُوهِ الناس عنه. بل ساعِدوهُ على ما قامَ به، وأَعينوهُ على مشروعِه، وكونوا لهُ أيدياً تُسعفُهُ، وأَعضاداً تَدْعَمُهُ[٩]. فإن فَعلتم ذلكَ كنتُم لأُمتكم من المحسِنين.

---

(١) العوار بفتح العين، ويجوز ضمها وكسرها: العيب وأصله في السلعة.
(٢) الإلحاد: العدول عن دين الله والطعن فيه.
(٣) يصدف: يصرف.
(٤) السذج: الذين لا خبرة لهم، والمفرد ساذج وأصل معناه: ما لا نقش فيه، فكأن التجارب لم تنقش في قلوبهم.
(٥) الترهات: الأباطيل.
(٦) لا يجنح: لا يميل.
(٧) الأسباب الأولى: الوسائل، الأسباب الثانية: الصلات والمودات، وأصل معنى السبب الحبل.
(٨) طريف الفضائل: جديدها، وتالدها: قديمها.
(٩) الأعضاد: الأعوان، والمفرد عضد ـ وتدعمه: تسنده وتقويه.

الكذب والصدق

لستُ أعني بالصدق والكذب ـ في هذا المَقام ـ ما هو مَعروفٌ لكلٍّ واحد، فإنَّ هذا الأَمر من البديهيّات التي يَعْرِفُها البيانُ. وإنّما أعني بهما صدقَ الفعلِ وكذبه. نتيجتان للقول في حالَيْ صدقِهِ وكَذِبه.

ولا تَقُل لأَحدٍ: إنَّكَ صادِقٌ أو كاذِبٌ، حتى تَرى صِدقَ عَملِهِ أو كَذِبه. ولا تصف قولاً بِصدْقٍ أو كذِبٍ، حتى ترى أثرَهُ، لأَنَّ القَولَ تَعظمُ قيمَتُهُ، أو تَصغُرُ، بِنتيجَته. ولا يصدُق القول حتى يَصْدُق العملُ.

صِدْق الفِعلِ نتيجةٌ لازمةٌ لأَصحابِ الإِرادة، الذين لا يحولُ بينهم وبينَ تحقيقِ ما يقولونَ حائِل.

نرى كَثيراً من الناس ـ حتى مَنْ لهم منازِلُ عاليَةٌ، بسببِ ما يتقلَّدونهُ من الأَعمال السّامية ـ يقولون ما لا يفْعَلون وإن طالبتهُم بإِنجازِ أقوالهم، والوفاءِ بوُعودِهم، غاصوا على انتِحال الأَعذار، ولَجأُوا إلى ما طُبعوا عليهِ من الرياء والنفاق وأضاعوا الأَوقاتَ في ترويج المعذِراتِ. وما ذلكَ إلا من ضَعفِ الإِرادة في نُفوسهم، وَعَدَم تعوُّدِهم صِدْقَ القَولِ لِيصْدُق الفعل.

إن أجاب الإِنسانُ بالسّلب، حين يُسَأَل إنفاذ أمر، فلا يَلومُهُ أحدٌ. بل يكونُ الرَّدُّ خيراً من وَعيدٍ يَتْبعُه المِطالُ والتَّسْويفُ[1]. وإنّما يلامُ أشدَّ اللوم من قالَ: أفعلُ، ثمَّ نكص على عَقبيه[2]، ولم يَفِ بما وعَدَ به. وما إخلافُ الوعد مِنْ دأب[3] الرِّجال الكملة، وما الكذِبُ إلا من أخْلاقِ السَّفلَة[4].

(١) المطال: المماطلة. والتسويف: أن تعد أحداً بعد مرة بقولك: سوف أفعل.
(٢) نكص على عقبيه: رجع.
(٣) الدأب: العادة.
(٤) السفلة: بفتح السين وكسر الفاء، وبكسر السين وسكون الفاء: الأسافل والغوغاء والأوباش. وأما السفلة بفتح السين والفاء، فجمع سافل ضد العالي.

يجِبُ على المرءِ، قبلَ أنْ يَعِدَ بأَمر، أن يَترَوَّى فيهِ حتى يقْتُلَهُ خُبراً. فإن رأى أنَّ في قُدرته أن يَفيَ به وعَدَ، وإلا توقَّف. أمَّا من يَعِدُ قبلَ التَّفكر والتَّأمُّل: أَفي وسعه الوفاءُ بما وعدَ به أم لا؟ فهو رجُلٌ أحمقُ أَهْوَجُ[١]، وكَثيراً ما يرمي الحُمق بصاحبه في مَفاوزَ من النَّدَم بعيدَة الأرجاءِ[٢].

وبعدُ فإن تعجب لأمْر، فاعجب لقَوم يقُولونَ ويعدون وهم قد وطَّنوا أنفُسَهُم[٣] على عدم الوفاء. وإنما يدعوهم إلى الكذِب ما أُشربتهُ نُفوسُهُم من فساد التربية. ومن اعتادَ أمراً حتى صار خُلُقاً لهُ، صَعُبَت إزالتُهُ من نفسه. فهو يلازمُهُ حتى يُدرجَ في قَبره[٤]. وإنَّ المرءَ، متى عُرِفَ بتَرك الوفاء وكَذب العَمل، نَفَرَ منه النَّاسُ حتى أَخِصَّاؤُهُ، فلا يثقُونَ به إن قال، ولا يلتفِتون إليه إن وعد. بل يَرَوْنَهُ كَسرابٍ بقيعَةٍ يحسبُه الظَّمآنُ ماءً[٥] حتى إذا جاءه لم يجِدهُ شيئاً.

ما انتشرَت هذه الخَصلَة الشَّنعاءُ في أُمة إلا وفُقدت الثِّقَةُ من نُفوسِ أبنائها. وفقدانُ الثِّقة فقدانُ الحياة.

فإيَّاكُم ـ معشرَ الناشئينَ ـ والكَذِبَ، فإنَّه يؤَدِّي إلى ثَلم[٦] تاجِ الرَّفِّ. واحذروا الإخلاف بالعهد، فإنَّه داعيةُ نُفورِ الأمّة.

إن كُنتُم قادرين على الوفاء، فعِدوا، أو على الفِعل، فقولوا وإلا فَدعوا الوعد والقول، كيلا تكونوا من الكاذبين.

---

(١) الأهوج: الطائش الأحمق، والمؤنث هوجاء، والجمع هوج بضم الهاء.
(٢) المفاوز: الفلوات المهلكة، والمفرد مفازة ـ والأرجاء: الأطراف والنواحي.
(٣) وطن نفسه على الأمر: مهدها وذللها على إتيانه.
(٤) يدرج: يدخل.
(٥) السراب: ما تراه نصف النهار من شدة الحر كأنه ماء ـ والقيعة: أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال ـ والظمآن: العطشان.
(٦) الثلم: الكسر والشق.

الاعتدال

من نَشَدَ الفضِيلَة[1] فليَصْلُبْها في الاعتدال:

فالاعتدالُ في الفكر، والمَذهَبِ والمأكلِ، وَالمَشربِ، والملبسِ، والبذلِ[2] وكُلِّ أَمرٍ حِسِّيٍّ أَو مَعنَويٍّ، هو الفَضيلة.

ومن لَزِمَ السَّبيل[3]، كانت عاقبةُ أمْرِهِ السَّلامة، وكلا طَرَفَيْ قَصدِ الأمورِ ذميم.

الاعتدالُ هو التَّوسُّط في كُل شيء.

الشَّجاعة فضيلةٌ، لأَنَّها وسطٌ بين نقيصتي التَّهَوُّرِ والجُبْنِ. والجودُ فضيلةٌ، لأَنَّه قصد بين رَذيلَتين: الإسْرافِ والبُخل.

وهكذا تجدُ كُلَّ فضيلةٍ من الفضَائل في الاعتدال، أي: التَّوَسُّط بين رذيلَتين.

الذكَاء، إن زاد أدَّى إلى الخلل في الأعمال، وحَمَل على أُمور لا تليقُ بالعاقل، وإن نَقصَ كان بنقصه البَلَهُ والغباوة.

والتَّقوى، إن جاوزَت حَدَّها كان منها الوسوسةُ، التي تُؤَدِّي في أكثر الأَوقات إلى ترك العبادة والعُكوف[4] على أعمال الفُسَّاق العاصين.

لذلك نَهَت الشرائعُ السَّماويَّةُ عن الغُلُوِّ في الدين، وأَمرت باتباع القصدِ فيه. وقد ورَدَ في الحديث: **«إنَّ المُنبتَّ[5] لا أرضاً قَطَعَ، ولا ظَهراً أبقى»**.

---

(١) نشد الفضيلة: طلبها وبحث عنها ليهتدي إليها.

(٢) البذل: العطاء.

(٣) القصد: استقامة الطريق، والتوسط في الأُمور ـ وقصد السبيل: الطريق المستقيم الموصل إلى الحق والفضيلة.

(٤) العكوف على الشيء: الإقبال عليه ولزومه والمواظبة عليه.

(٥) المنبت: المنقطع، والمراد به المنقطع عن رفاقه في السفر، الذي يحمل دابته على ما لا =

والعِلمُ، متى اتسعت دائرتهُ في الإنسان، كان عاقبَتُه الجهلَ. ورُبَّما وصل من جاوز الحدَّ في علمه إلى جهل كثير من حاجات نَفسه.

والقاعدةُ الشَّاملَةُ أن كلَّ شيءٍ جاوزَ حَدَّه انقَلَب إلى ضِدِّه. وهي قاعدةٌ تَعُمُّ الحيوانَ، والنَّبات، والجمادَ، والمعقولات، والحسِّيَّاتِ، والاجتماعَ والعُمران.

فالعاقلُ من ألزمَ نَفْسهُ التَّوَسُّط في الأُمور والاعتدالَ في أَحواله المعاشيَّة والاجتماعيَّة والدينية. فإنَّ الاعتِدالَ هو السَّلامةُ. وما ضَرَّ الأُمَّة إلا تَركُ الاعتدال.

فاعْتَصِمْ[1] أيُّها الناشئ بالاعتدال ولا تَدَع لِشَيطانَيْ طَرَفَي الأَمرِ سبيلاً إليك. فخَيْرُ الأُمورِ أوسَطُها لأَنَّ فيهِ الفَضيلَةَ الَّتي هي نُجْعةُ الرَّائدين[2].

= تطيقه من السير، رغبة في الإسراع، ليصل إلى غايته، فينقطع ظهرها تعباً فلا تقدر على مواصلة السير، فينقطع هو في الطريق، فيكون حينئذٍ ما قطع الأرض التي يسير فيها ليبلغ ما يقصد إليه، ولا أبقى ظهر دابته سالماً. فكذلك من يجهد نفسه ويتعبها في العبادة وينقطع فيها، فلا يلبث أن يملها ويبغضها، فلا هو بلغ المقصود من إرضاء الله، ولا أبقى نفسه في الراحة.

(١) اعتصم: تمسك.

(٢) نجعة الرائدين: طلبة الطالبين، والنجعة في الأصل الكلأ والمرعى ـ والرائد: الرسول يرسله القوم ليرى لهم مكاناً صالحاً لنزولهم ومرعى مواشيهم.

الجـود

المالُ ـ كالقُوَّة ـ خادِمٌ للإِنسان عندَ مَسيس الحاجة.

إِذا رأَيتَ أحداً، وقد همَّ بالبَطش بك، تدفعُ عنك أذاهُ بما لَدَيك من قُوَّة.

وإِن رأيتهُ، وقد اعتدى على أحد الضُّعفاءِ، دفَعتك الحماسةُ إِلى مُقاومتهِ وردِّ عُدوانه عن ذلك الضَّعيف، صدقَةً عن قُوَّتِك. وتكونُ حماستُك أشدَّ، إنْ رأَيت أَعداءَ مُندفعةً إِلى مقاتلَة الأَمّة وتخريب بلادها.

وكَذا، إِن شَعرَتْ نَفْسُك بحاجةٍ إِلى أمرٍ من الأُمور التي تَنتفِعُ بها، فإِنَّك تَدْفعُ هذه الحاجةَ بدَفع جُزءٍ من مالك تبذلُهُ في سبيلها.

وإِذا وجدتَ بائساً، أو ضعِيفاً لا حَولَ له ولا قُوَّةَ حَرَّكَتْك عاطفَةُ المُروءَةِ والحَنان، فبذَلتَ ما تَسْمَحُ بِهِ نفْسُك لِسَدِّ عَوَزِه[1] ودَفع حاجته.

وإِن رأيتَ الأُمّةَ كُلَّها في حاجة إِلى البذل ـ وأنتَ قادرٌ على إِصلاح فاسدها ولَمِّ شَعَثِها[2] ـ كان اندفاعُك إِلى الإِحسان أشدَّ، وشعورُك بالحاجة إِلى البذل أقوى.

وكما يَصدِفُ[3] الجُبنُ الإِنسانَ عن رَدِّ ما أرادَ به أو بغَيره السوء ـ فيكونُ عُرضَةً للمؤذين، ومَروةً للقارعين[4] ـ فكذلك البُخلُ يَصرفُه عن البذل فيما يحتاجُ إِليه من الحاجات، حتى الضَّروريَّةِ منها. ومن جَبُنَ عن دفع الأَذى عن نفسِه، وبَخِلَ بما يَسدُّ به ثغورَ حاجاتهِ[5] فأَجدر به أَن يَجْبُنَ

---

(١) العوز: الضيق والحاجة.

(٢) لمّ الشعث: جَمْع المتفرق.

(٣) يصدف: يصرف.

(٤) المروة: واحدة المرو، وهي حجارة بيض رقاق براقة صلبة تنقدح منها النار، وتعرف بالصوان. ويقال قرع الدهر مروة فلان، أي: أنزل به البلاء.

(٥) الثغور: الشقوق، وهي جمع ثغر. والثغر في الأصل: الشق بين الجبلين، وموضع المخافة من البلد يخاف هجوم العدو منه.

في مأزِق[١] الدِّفاع عن غيره، ويبخل ولو بقليلٍ من المال يَنفعُ بهِ سواه.

وكما يُضيِّعُ التَّهوُّرُ في أكثر الأَحيان حياةَ من عَشِقُوا الإِقدامَ على المخلوقات ـ من غير تَرَوٍّ ولا تَفكُّرٍ، فلا يَنفَعون بإِقدامِهم ولا يَنتفعون ـ فكذلك الإِسرافُ وتَبذيرُ الأَموال فيما لا يُفيدُ، يكونُ داعياً لضَياعها، وأن يَبيتَ صاحبُها بعدَها حَزيناً آسفاً.

وكُلُّ ذلك من نتائج تركِ الاعتدال، فَلْنلْزَم الاعتدال.

صاحبُ المال يُتلِفُ مالهُ الإِسرافُ والإِنفاقُ على ما لا خير فيه لنفسه ولا لأُمّته، فيُصبحُ بَعدَ حينٍ في عِداد الأَوفاضِ[٢]، خالي الوِفاض[٣]، صفرَ اليَديْن[٤]، فارغَ الكفَّين.

والشحُّ[٥] يَسوقهُ إلى النَّصَبِ[٦] في كسْب الذَّهب، ثم يحولُ دونهُ ودونَ أن يحْيا حياةَ السُّعداء. وما المالُ إلا وسيلةٌ للعيش الرَّغدِ[٧]، وسبَبٌ لتخفيف الفاقة عن الفقراءِ[٨] ومُداواةِ آلام البائسين.

كَما لا خير في قُوَّةٍ بلا شجاعَة ـ لأَن صاحبها يكونُ جباناً أو مُتَهوِّراً ـ فلا خير في مال بلا جودٍ لأَن صاحبه يكونُ بخيلاً أو مُسْرفاً.

إِن كان في الإِسراف إِتلافُ الأَموال، فَفي البُخل بها إِرهاقُ النفس عسراً[٩]. فالويلُ في كِلْتا الحالتين نازِلٌ بمن تَخلَّق بهما.

والاعتدالُ ـ وهو الجُود ـ داعية السَّعادةِ بالمال.

---

(١) المأزق: موضع الحرب، والمضيق.
(٢) الأوفاض: الفقراء الذين لا مال لهم. والأوفاض أيضاً: الفرق من الناس، والأخلاط أو الجماعة من قبائل شتى.
(٣) الوفاض: جمع وفضة، وهي خريطة يحمل فيها الراعي أداته وزاده.
(٤) صفر اليدين: فارغهما.
(٥) الشح: البخل مع حرص.
(٦) النصب: التعب.
(٧) الرغد، بفتح الراء وسكون الغين، وبفتحهما: الواسع الطيب.
(٨) الفاقة: الفقر والحاجة.
(٩) أرهقه عسراً: كلفه إياه. والإرهاق: تكليف ما لا يستطاع ولا يطاق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ[١] وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

فَلُزومُ القصدِ[٢] واتّباعُ وسطِ الأَمر، هو المنجّي من الويلات[٣]. فلْيُنفِق الإنسانُ على نفْسه وعياله، والمحتاجين من الناس، وعلى المشروعات النَّافعة، ما ليس إِسرافاً ولا بخْلاً.

وليُعلم أنَّ الجُودَ يُقدَّرُ بِقَدْرِ الثروة. فرُبَّ جُودٍ يُعدُّ بُخلاً في جانبٍ آخر والعَكسُ بالعكْسِ.

وبعدُ، فإِنَّ في الأُمَّة قوماً، أصلحهُمُ الله، حسبوا البخلَ سَبَبَ الخلودِ في الدّنيا. فإِن طلبتَ منهُم أن يَقوموا بِسدِّ عَوَز بعضِ الفُقراءِ، وإِعانةِ بعض المشروعات الحيويَّة، ظَنُّوا أنك تدعوهم إِلى إِشراع الرِّماح[٤] وتجريدِ الصِّفاح[٥]، وبَذل الأرواح، في ساحة الكفاح[٦]. فَمنهُم من يَبْخلُ على نفْسِه وعلى غيره، وهو شَرُّ الفريقين. ومنهم من يَبْخل على غيره ويجودُ على نفسهِ، فهوَ من الأَنانيِّين[٧]، الذينَ ضَعُفَ شُعورُهم ومَرِضَ وجدانُهم فَهم يَرَوْنَ الحياةَ في موت الأُمة، والسَّعادَة في شقائها.

وهناك قومٌ مُبذِّرون مُسرفون، إِن رأوا مُنْكراً أَقبلوا عليه، أو سَمعوا بسفاهةٍ طاروا إِليها، وبذلوا في تلكَ السَّبيل القناطيرَ المُقنطَرةَ من الذَّهب والفضَّة. وإِن دُعوا للبذلِ في سبيل الخير، عَمُوا وصمُّوا[٨]. وأُولئك هم شرُّ الثلاثة، وأُولئك هم العادون[٩].

(١) مغلولة: مشدودة في الغل، وهو القيد. وغل اليد إلى العنق: كناية عن البخل.
(٢) القصد: التوسط في الأمور.
(٣) الويلات: المصائب.
(٤) إشراع الرماح: رفعها وتسديدها إلى وجه العدو.
(٥) الصفاح: السيوف العراض، والمفرد صفيحة.
(٦) الكفاح: الحرب مواجهة.
(٧) الأناني: من لا يرى غير نفسه، فهو يقول: أنا أنا.
(٨) عموا: صاروا عمياناً ـ وصموا: طرشوا.
(٩) العادون: الظالمون الذين تجاوزوا الحد في الظلم.

فابتعد أَيها النشءُ الصَّالحُ عن هؤلاءِ وأُولئِك. والزَم سبيل الأَجوادِ الكرام، فهِيَ السبيلُ الواضِحةُ، والمَنهج الأَسدُّ[1]. فإنَّ الجودَ هو الاعتدال، وهو مَحطُّ الرِّحال[2] ومجلَى الآمال، ومَيدانُ الرِّجال.

فبه تمسَّك، وإلى حصنه التَجِئ، تَكُن أُمَّتُك سعيدَةً بك.

(١) المنهج: الطريق الواضح ـ والأسد: الأكثر سداداً، أي استقامة.

(٢) الرِّحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على الجمل. وفلان محط الرِّحال: مقصود بالحاجات.

السـعـادة

ما اختلفَ الناسُ في تفسير أَمرِ اختلافَهم في تفسير السَّعادة. ذلك، لأَنها من الأَشياء النِّسْبيَّة، والأمورِ الإضافيَّة. فهي ليست من الخير المجمع عليه، وإِنَّما هي خيرٌ بالإِضافة إِلى شخص رآها كذلك.

قد يَسْتحسنُ زيدٌ أَمراً، فَيعُدُّهُ سعادةً، ويحسَبُ الواصل إليهِ سعيداً. ويرى عَمْرٌو الأَمر نَفْسَه، فيَعُدُّهُ شقاءً، ويَظُنُّ العاكف عليْه شقيًّا.

فالسَّعادَةُ ـ كالجمال ـ قد تباينت فيها الفُهومُ[1]، واختلَفَت في تَفْسيرها المُيُولُ. ومرجِعُ الأَمر إِلى الذَّوْق، وتضارُبُ المنازع، إِنَّما هو من تَبايُن الأَذْواق.

فَمِنَ النَّاس من يرى السَّعادة في التَّبَسُّط[2] في المأكَل والمشرَبِ، أو اللهو، أو الملبس، أو تَمضيةِ الوقت في المَنازِهِ[3] والملاهي. ومنهم من يراها في كسبِ المال وحبسِهِ في الصناديق. ومنهم من يَعُدُّها في المطالَعَة والمُدارسة، والغَوص على دُرَرِ العُلُوم، والبحثِ عن مكنونات الآداب. ومِنهُم من يحسَبُ أنها في التَّخلِّي عن هذا العالَم الفاني، والزُّهدِ فيما تحويهِ هذه البسيطَة من متاعها. ومنهم من يراها في التَّسَلُّط والأَثَرَةِ[4]. ومنهم من يَراها في غير ذلك من المنازع والمشارب.

والسعيدُ من نَظرَ بعين العقل واختَطَّ لنفْسهِ خُطَّةً وسطاً يسْلُكُها. فالاعتدالُ في الأَمر داعيةُ السَّعادة فيه.

التَّوسُّط في المأكَل والمشرب سَببٌ لِحفْظ الصِّحة من الأَمراض والأَخلاطِ الفاسِدة.

والاعتدالُ في التَّنزُّه واللهو داعيَةُ سُرورِ النفْسِ ونشاطِ الجسْم. وفي تركهِما

(١) تباينت: اختلفت. (٢) التبسط: التوسع.

(٣) المنازه: جمع متنزه، وهو المكان الذي تروح فيه النفوس كالجنان ونحوها وهو جمع بحذف الزوائد وقول الناس منتزه بتقديم النون على التاء خطأ.

(٤) الأثرة: الاستئثار، وهو الاستبداد بالمنفعة.

انقباضُها. وفي الزِّيادة منهما تعويدُها الكسلَ والخُمول والميلَ إلى المفاسِد.

والاقتِصادُ في كَسب المالِ وبذلِهِ يَهدي إلى وجُوه الخير في مكسبه، وتركِ الشَّرَهِ[(١)] في جمعِه من حِلِّهِ وغيرِ حِلِّهِ، ويُرشِدُهُ إلى طُرُق الإنفاق القويمة، فلا يكُونُ بخيلاً ولا مسرفاً، بل يعيشُ عيشةَ السَّعادةِ والرَّفاهة[(٢)].

والقصدُ[(٣)] في العكُوف على الدَّرس والمطالعة يَدعو إلى ترويح النفْس، ويطرُدُ عنها المَللَ والسَّآمة.

والأَخذُ بحظي الدُّنيا والدِّين، والتَّمَسُّكُ بما يُربّي الجسْمَ ويُنعِّمُهُ، ويُهذِّبُ العقلَ ويُقوِّمُهُ، سَببٌ لِنيْل السَّعادتين في الحياتين.

وحَملُ النفْس على الترفُّع عن الصَّغار[(٤)]، والتَّنَزُّه عن الكِبرياءِ، هو الإِباءُ المحمودُ[(٥)]. وهو شَرَفٌ للنفس عظيم، لأنَّه يَربأ بالنفس أن تَستكينَ للضَّيم[(٦)]، ويَعصمُها[(٧)] أن تَعمِدَ لاحتقار الناس، أو تَميلَ إلى تذليلِهم، أو تَجنحَ للاستئثار بالمرافق والمنافع[(٨)].

وفيما تقدَّمَ من مجموع هذه التَّوَسُّطات ـ وغيرُها مَقيسٌ علَيها ـ سَعادَةٌ للمتخلِّق بها، تجعلُ حياته في هناءَة، وعيْشَهُ في رَغد[(٩)].

فمن أراد أن يكُون سعيداً ـ في نفسِه وأَهْلِهِ، ومالِهِ، وولدِهِ، وكُلِّ عَمَلٍ من أعماله ـ فعَليهِ أَن يتطلَّبَ السَّعادَة في قَصدِ السبيل. وليجْعلْ دَليلهُ إلى ذلكَ الدينَ والعقلَ والوجدان، فَهُنَّ خيرُ دليل.

إنَّ طريق السَّعادة، أَيها النَّاشئُ الكريمُ، أَمامَك. فاطلُبها في العلم والعملَ الصَّالح والأخلاق الفاضلة. وكن في كُلِّ أَمرك وسطاً تَكُن سعيداً.

---

(١) الشره: اشتداد الحرص وغلبته.
(٢) الرفاه والرفاهية: لين العيش وسعته ورغده.
(٣) القصد: التزام التوسط.
(٤) الصغار: الذل والضيم.
(٥) الإباء: خلق يمنع الإنسان مما يعيبه.
(٦) يربأ بالنفس: يرفعها ويمنعها ـ وتستكين: تذل وتخضع ـ والضيم: القهر والظلم والذل.
(٧) يعصمها: يمنعها.
(٨) تجنح: تميل ـ والمرافق: المنافع والمصالح، والمفرد مرفق «بوزن منبر ومجلس ومقعد» وهو ما ارتفعت به، أي انتفعت.
(٩) الرغد، بفتح الغين أو تسكينها: السعة.

القيام بالواجب

لو قام الناس بما وَجبَ علَيهم، لكانوا ـ وهم في الأَرض ـ في جنة الخُلد.

على المرءِ أَن يَعرِف بادئ ذي بدءٍ، ما وجب عَلَيْه معرفةً صحيحة، ثمَّ عليه أَن يقُوم به حقَّ القِيام.

معرفةُ الواجِب شيءٌ عظيمٌ، والقيامُ به أَمرٌ أَعظمُ.

إن كان هناك كثيرٌ من الناس لا يَعْرِفُ الواجب فإنَّ أكثَرَهم يَعْرِفُهُ ولا يَرعى لَهُ عَهْداً[١]. ومَلامَةُ من يَعْرفُ الحقَّ فَيحيدُ عنهُ، أشدُّ من ملامَة من يَحيدُ عنهُ لأَنه يَجهلُهُ.

عَجِبْتُ من بعض الناس كَيف يُريدُ مِن غَيره أَن يقوم بما وَجَبَ عليه نحوَهُ، ثُمَّ هُوَ يُهْمِلُ أَشَدَّ الإِهمال ما وجَب عليهِ نحوَ غيره! . . .

منشأُ إِهمال الواجب أَحدُ شيئين: الأَثَرَةِ[٢]، وضَعْفِ الإِرادَةِ.

فالأَثَرَةُ تَدْفَعُهُ إِلى احتِكار غيره والاستِبداد بالمَرافِقِ دونَهُ[٣]، فَيقتُلُ بذلك الواجبَ عليه نحو الأَفرادِ والجماعات من القيام بِخدمتها، والسَّعْي وراءَ منافِعِها، كما تَخدُمُهُ وتسعَى لمنفعَته.

وضَعفُ الإِرادة يحُولُ[٤] بينهُ وبين أَن يقوم بما وجبَ علَيه. فإِنْ خطَرَ له أن يعمَل، حالت تربيتُهُ الفاسدةُ دون القِيام بالواجب.

القيامُ بالواجب من المنافعِ المشترَكِ فيها، التي يعُودُ نَفعُها على القائم بها، كما يَعُودُ على غيره. لأَنكَ إِن عَمِلْتَ ما وجَبَ علَيْكَ نحْو امْرِئ من

---

(١) لا يرعى: لا يحفظ.

(٢) الأثرة: الاستبداد بالمنفعة والانفراد بها.

(٣) المرافق: المنافع.

(٤) يحول: يعترض ويمنع.

النَّاس، فإِنَّهُ يَبْذُلُ جُهْدَهُ لِيُقابِلكَ بمثل عَمَلِك، ويقومُ بما وجب عليهِ نحْوكَ. وإن قُمْتَ بالواجبِ نحوَ الأُمّة، ودعوت غيركَ للقيام به نحْوها سُعِدَتْ، وكانت سعادتُها سعادَةَ أفرادها، الذين أَنتَ واحدٌ منهُم.

قُم بالواجِب نحو والديْك، يقوما بالواجب نحوَكَ. وبذلكَ تنال ما تَتمنَّاه من السَّعادَة.

وقُم بالواجب نحو أساتذتِك ـ بأَن تكونَ مُتخلِّقاً بالأَخلاق الفاضِلَة، مُكبّاً على الدَّرْسِ باذلاً الجُهْدَ في إِيفاءِ الواجبات المَدرسيَّة ـ تكن أَحبَّ إليهم من أَولادهم.

وقُم بالواجب نحوَ أَصدقائك ـ بأَن تكونَ لهم عوناً في الضَّراء[١] وأنيساً في السَّرَّاء[٢]، وأَن تموتَ لموتهم، وتحيا لحياتهم، وأَنْ تأْخُذَ بأيديهم إِن عَثروا[٣]، وتُساعدَهم إِن أَملَقوا[٤] ـ يكُونوا لك أَعواناً في الشَّدائد، وأعضاداً في النَّوازل[٥].

وقُم بالواجب نحو أَهلكَ ـ بأَن تُواسِيَ فُقراءهم[٦]، وتَدْفَعَ الحاجةَ عن محاويجهم[٧] ـ يَفْدوك بأَرواحهِم، ويبذلوا ما عزَّ وهانَ لِرَفْعِ شأنك وإِعلاء منزِلتك.

وقُم بالواجب نحْو أَولادِكَ ـ بأَن تُرَبِّيَهُم تَرْبيةً حسنَة، وتُخلِّقَهم بالأَخلاق التي تجعلُهُم في درجات الرِّجال ـ يقوموا بواجبِك، ويَرفَعوا من مَقامك، ويكونوا لك خَدَماً في شيخُوختك يومَ لا تجد من يخدُمُك سوى بضاعِكَ المُهذَّبين[٨]، الذين قُمْتَ بواجبهم في زمن نشأَتهِم.

وقُم بالواجب نحوَ زَوجكَ ـ بأَن تعاملها، كما أَمرتك الشَّريعة، بالإِيناس والبَشاشةِ واللين؛ وأَن تأتيها بما تَحْتاجُ إليه، بلا إِسراف ولا تقتير[٩]، وأن

(١) الضراء: الشدة.
(٢) السراء: الرخاء.
(٣) عثروا: سقطوا وزلوا.
(٤) أملقوا: افتقروا.
(٥) الأعضاد: الأعوان ـ والنوازل: المصائب.
(٦) تواسي فقراءهم: تعطف عليهم وتشركهم فيما أنعم الله به عليك.
(٧) المحاويج: جمع محتاج.
(٨) البضاع: الأولاد، والمفرد بضعة، بفتح الباء، وقد تكسر، وهي في الأصل القطعة من اللحم، وسمي الولد بضعة لأنه قطعة من أبويه.
(٩) التقتير: التضييق.

تُهَذِّبَ أخْلاقها، وتُعلِّمها ما وجب عليها ـ تَكن لك أَطوَع من يَمينك، وَتَقُمْ بالواجب علَيها نحوك، وتَعش شريكةً لك في السَّراء والضَّراء.

وقُم بالواجب نحو تجارتك وصناعتك وسائر عَملك ـ بأنْ لا تكُون غاشاً، ولا خادعاً، ولا مُرَوِّجاً لفاسد، ولا مُحَبِّذاً لِعَوار[1] ولا مادحاً لمعيبٍ ـ ترَ أَفئدَةَ الناس تَهوي إليك، ويُقبِلِ القومُ على ما لَدَيْك من تجارةٍ أَو صناعة أو عمل. لأَن الثِّقَةَ أَمرٌ عظيمٌ، ولا يُوجدُها إلا القيامُ بالواجب.

وعلى الحكُومةِ أَن تَقُوم بواجبِها نحو الشَّعب ـ بأن تحترم لغته، وآدابَهُ، وعاداته، وممَيزاته، وحُقُوقَهُ الأَدبيَّة والقانونيَّة، وسائر ما هو حقٌّ له ـ فإِن فَعلتْ ذلك اندفعت الأُمَّة لِنُصْرَتها وشَدِّ أَزَرها[2]، وأَقدمت على القِيام بِما وَجب علَيها نحوها.

وقيامُ كُلِّ فريقٍ ـ من الحكومَة والأُمّة ـ بما يَجبُ علَيه نحوَ الآخر، هو السَّعادةُ، التي ما وراءها سعادةٌ في هذه الحياة.

فعلَيك أَيُّها الناشئ، بالقِيام بالواجب، فإِنَّه روحُ الوُجود، وسرُّ العُمران، ورأسُ الأَخلاق.

أَنصفِ الناسَ من نفسِك، ينصفُوك من أَنفُسهم.
وقم بالواجب علَيك نحوَ غيرِك، يَقُم بالواجب عليه نحوَك.

---

(١) العوار بتثليث العين: الخرق في الثوب، والعيب في السلعة.
(٢) شد الأزر: كناية عن التقوية ـ والأزر: الظهر والقوة.

الثقة[1]

لولا الثِّقةُ لعاشَ الناسُ دَهرهُم في القلق والخوف.

وفَقْدُ الثِّقة فِقدانُ الحياةِ السَّعيدة.

فهي روحُ الأعمال، ورَيْحانَةُ[2] الآمال.

إن ضَعُفَتِ الثِّقة في النُّفوس، كان الإنسانُ نحو أَخيه الإِنسانِ، وحشاً ضارياً[3]، يَتنكَّرُ لرؤيتِه، ويتحَفَّز لمقاومته[4] فَلا يأْتمنُه على مال، ولا يَركنُ إليه في حال.

التِّجارةُ مدارُ الحركةِ الاقتصاديَّة، وهي مبنيةٌ على تبادُلِ الثِّقَة؛ ولَولاها لَكسدَتِ الأَموالُ ووقَف دولابُ الأَعمال. فكانَ من ذلكَ شقاءُ الحياة، وضيقُ دائرة الرجاء[5] وأَيُّ عاقلٍ يُقْدِمُ على تَسليم أَمواله إِلى من لا ثِقةَ له به؟! إِن هذا لَضَرْبٌ من الجنون عَظيم[6]!.

وكَما أَنَّ فَقدَ الثِّقةِ في الأُمور الماديَّةِ داعيةُ انحلالها وفسادِها فكذلك هو في الأُمورِ المعنويَّة.

إِذا صادَقتَ إِنساناً، فوجَدتَ أن لا ثقة لَكَ بصداقتِه ـ لأَنَّهُ يَبيعُكَ بأكلةٍ، أو بما هو أحقرُ منها، أَو يأكُلُ لحمك[7] مَعَ مَنْ يَراهُ يأكُلهُ، أو لا يَدْفَعُ عنكَ بِظهرِ الغَيْبِ ما يُوجَّهُ إِليكَ من السُّوءِ، بل يَجبُنُ عن القيامِ بِنُصرتك، أو يَبذُلُ

---

(١) الثقة: الائتمان. وثق به يثق: ائتمنه.

(٢) الريحانة: واحدة الريحان، وهو نبت طيب الرائحة.

(٣) ضارياً: مفترساً.

(٤) يتحفز: يتهيأ للوثوب.

(٥) الرجاء: الأمل.

(٦) الضرب: النوع، وجمعه ضروب.

(٧) يأكل لحمك: يغتابك.

الجَهْدَ في استنباطِ الحِيَل لِيَختلِسَ أموالك، أو لِيطَّلِع على أَسرارك، ثم يفشيَها بين الناس ـ فإنك لا تُقيمُ على صداقته، ولا تركنُ لِخُلَّبِ صحبته[١]. وإن بقيتَ مُحكِماً حَبْلَ المودَّةِ، فأَنتَ غِرٌ[٢] جهولٌ، أو جبانٌ ضَعيفُ الإرادة.

الغاشُّ في عملِهِ يُميتُ ثِقةَ النَّاس بِهِ، فلا يُقبِلون على تجارته، ولا يحفِلونَ بصناعته، ولا يأبهُون لِعمَلٍ من أعماله[٣].

المخادعُ والمُرائي والمنافِقُ والكاذبُ والطَّامعُ والخائِنُ والأَنانيُّ، كلُّ أُولئك منفُورٌ منهُ، مَنئِيٌّ عنه[٤].

وما ذلك إلا لفَقدِ الثقة به من النُّفُوس.

فالمخادعُ يُريدُ بكَ المكروهَ من حَيثُ لا تعلَمُ وهو يُظْهِرُ لك الحُبَّ وإرادَةَ الخير. فمتى عَلمتَ بختْلِهِ[٥] ومَكْرِه، نفرتَ منه لِضعْفِ الثقة بِهِ.

والمُرائي يُريكَ خلافَ ما هو عليه. يكونُ فاسقاً سافلاً فَيريكَ أنه صالحٌ عَليٌّ، ويكونُ دنيئاً ساقطَ الهِمَّة، فيُريكَ أَنَّه شريفُ النَّفْس ناهضُ العَزيمة. ويكونُ آكلاً أَموالَ النَّاسِ بالباطِلِ، فيُريكَ أَنه أَمينٌ على ما يُسْتَودَعُهُ من مال. ويكُونُ ويكونُ فَيُريكَ أنه على خلاف ما يكونُ. ومتى عَرَفْتَ ما هو منطَوٍ عَلَيهِ من الأَخلاق السَّافلة، لفظْتَه لفظَ النَّواة[٦] لأَنَّك لا تثقُ به.

والمنافق كالمرائي في أَنَّ كُلاً منهُما يُبطن خلاف ما يظهر، إلاَّ أَنَّ خُلُقه أسفل لأَنَّهُ لا يكون قاصراً على المنافِقِ والمنافَقِ له. فالمرائِي يُريك لِتَميلَ إليه، وتعْتَقدَ فيه الاستقامة.

والمنافقُ يسترُ اعتقادَه الدِّينيَّ، أَو الاجتماعيَّ، أَو السياسيَّ، ثم هو يُصرِّحُ لأَصحابِ المذاهبِ المختلِفةِ والمشاربِ المتباينَةِ[٧]، أنه معَهُم، وأَنَّ عقيدَتَهُ

---

(١) صحبة خلّب: غرارة لا فائدة منها، كما قالوا: برق خلّب، للذي لا مطر وراءه.
(٢) الغر: من لم يجرب الأُمور.
(٣) لا يحفلون: لا يعبئون ولا يلتفتون، ومثله لا يأبهون.
(٤) منئي عنه: مبعود عنه.
(٥) الختل: الخداع والمكر.
(٦) لفظته: طرحته ـ والنواة: بزرة التمر ونحوه.
(٧) المتباينة: المختلفة.

كَعقيدتهم ورُبَّما كان لا يعتقِدُ عقِيدَةَ أحدٍ منهُم. وقد يَميلُ إلى مشربٍ وهو يعلمُ أن أَهله في الضَّلال المُبين. فيُطْري[١] أُصولَهُ وفروعَهُ ويَجْعَلُ مُتَّبعيه في أَعلى علّيين[٢] وما ذلك إلا لِمنفعَةٍ ماديَّة تَجعلُهُ مملوءَ الحقِيبةِ[٣]. ومتى عُرِفَ أَحدٌ بالنِّفاق، طَرَحهُ الناسُ أرضاً، لِفقدانِهم ثقتَهُم به.

والكاذبُ، إما أَن يَكْذِبَ لخوف مكْروه، أو رجاءِ محبوب وفي كلْتا الحالتينِ يكُون كَذبُهُ لطَرح الثِّقة بقَوله، وسبباً لاعتقاد الكَذِبِ فيه، وإن كان صادقاً.

والطّامعُ يسْعى أَن ينال فوقَ ما يسْتَحِقُّ، ويجتهدُ لِيقْتَطعَ لنَفْسِه حقَّ غيره فهو غيرُ مأمون عَلى حقّ، ولا مركُون إليه في أمر، ومن كان كذلك فأنّى للناس أَن تَثِقَ به!

وأَمَّا الخائنُ فَعدَمُ الثقة به أمرٌ واضح، وهو فيه آكَدُ منه في غيره، وأدعى للنُّفرَة منه لأَنَّ الخيانَةَ هي مجموعُ الخداع والرياءِ والنفاقِ والكَذِب والطَّمع. هذه هي الخيانَةُ الكُبرى، وهي المُرادَة عند الإطلاق. وكُلُّ واحدٍ من ذلك المجموع خيانَةٌ، لأَنَّ من خادعك، أَو راءَاك، أَو نافقَ لكَ، أَو كذَب علَيك، أو طمِعَ في حَقِّكَ، فقَد خانَكَ وأَراكَ غير الحق.

والأنانيُّ ـ وهو من لا يرى غير نفْسه ـ يدعوه غُرورُهُ[٤] إلى التَّكلّم عن نفسه بأشياءَ لا تَنطبِقُ على الواقع. وكُلُّ ذي غُرورٍ معروفٌ بالمبالغَة والحيدان عن منهَج الصَّواب[٥] إذا قال عن نفسِهِ شيئاً، فهو لذلك يكونُ غيرَ مَوثوق بهِ، ويكُونُ كلامُهُ غيرَ واقع مَوقِعَ القبول.

أَلا إِن مدار الثقَة على أَفراد الأُمّة: فإن كان مبْلَغُهم من الصِّدق وشَرفِ

---

(١) يطري أُصوله: يبالغ في مدحها. والإطراء المبالغة في المدح أو الإتيان بأقصى ما عند المادح منه. يقال: أطرى فلاناً يطريه. وقد يقال: أطرأه يطرئه ـ بالهمزة ـ كما في لسان العرب والقاموس، لكنه نادر.

(٢) أعلى عليين: أعلى المراتب، وعليون في الأصل: اسم لأعلى الجنة.

(٣) الحقيبة: خريطة يعلقها المسافر في الرحل للزاد وغيره.

(٤) الغرور: أن يرى الإنسان في نفسه من الفضائل ما ليس فيها.

(٥) الحيدان: الميل والعدول ـ المنهج: الطريق الواضح.

النَّفْس عظيماً، كانت الثِّقَةُ فيما بينَهُم عظيمة. وإِن ضعُفت تلك الخلالُ الفاضِلة[١]، ضعُفَت الثِّقةُ، والتَوى نظام الأَعمال[٢]، وكان من وراءِ ذلك القضاءُ على الطُّمأنينة وسعادة الأُمّة.

الثقَة المتبادلةُ عُروةٌ تُعلَّقُ إليها الرَّوابطُ الاجتماعيَّةُ والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة، فهي كما تكونُ بين الأَفراد، تكُونُ بين الجماعات. وكما تكونُ بين الجماعات تكون بين الأُمم والدّوَلِ[٣]. وبانحلالها تنحلُّ تلك الروابط، وتَختَلُّ أَناظيمُ الاجتماع[٤].

تَعوَّدوا، مَعشرَ النَّاشِئين، صِدقَ القَول والعمَل، وأَلزِموا أَنفسَكم الإِباءَ[٥] والإِيفاءَ بالوعد، تكُن الثقَةُ بكم طَوعَ يمينكم. ومتى نِلْتُم ثِقَةَ الناس بكم، كُنتُم من المُفلِحين، وإِياكُم أَن تُضعِفوها، فإِنكم بالثقة تعيشون.

(١) الخلال: الخصال والمفرد خلة ـ بفتح الخاء.
(٢) التوى: عسر وتعوج.
(٣) الدول، بكسر الدال وفتح الواو: جمع دولة، بفتح فسكون. ومعناها السياسي معروف. وأصلها دولة الحرب، وهو أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى يقال: كانت لنا عليهم الدولة. وأما الدول: بضم ففتح، فهي جمع دولة، بضم فسكون ومعناها ما يتداول بين الناس، يكون لهؤلاء تارة ولهؤلاء تارة أخرى.
(٤) الأناظيم: جمع نظام.
(٥) الإباء: الامتناع مما يعيب.

الحسد

كبارُ النُّفوس لا يحسُدون، لأَنَّ الحسَدَ من صِغر النَّفس، وضَعف الإِرادة، ولؤم الطَّبع، والعظيمُ الأَبيُّ من بَعُدَتِ المساوف[1] بينَه وبين هذه الأَخلاق الوضيعة.

من الكلمات السائرة: «الحسُودُ لا يسُودُ» وهي كَلمةٌ ـ لو تعلمون ـ عظيمةٌ، تَتضمَّنُ معانِيَ كبيرة. وهي إِن صَغُرَ لفْظُها، فَقد كَبُرَ معناها، وشَرُفَ فَحواها.

الحسُودُ يكُونُ ضَيِّقَ الخلُقِ، مُقْبَضَ الصدر، مضطربَ الفِكر. إِن رأَى ذا نعْمةٍ، أَو شاهدَ أحداً نال في الناس مقاماً رفيعاً هو أَهلٌ لهُ ودَّ لو تُحوَّلُ تلْك النِّعمةُ إِليه، ويكونُ ذلكَ المَقامُ طَوعَ يَدْيهِ، وإِن نال الشَّقاءُ من أصحابها مَنالَهُ.

التَّمنّي ـ كَما يقولون ـ رأْسُ مالِ المفلس وأَنَّى لِمَنْ خلا من الإِرادَةِ وعزَّة النَّفس وكرم الطَّبع أن ينالَ المقام المحمود، أَو يَصلَ إِلى نعمَة المحسود! فهو بذلك التَّمَنّي السافل لا يستطيعُ أَن يُحَوِّل إليه نِعمَةً أَنعَمها الله على عبده، ولا أَن يغصبَ مقاماً لغيرِه، فيُوسَّدَ إليه[2]. بل يبقى ـ كَمَا كان ـ قليلَ النِّعمة، سافلَ المقام، دنيءَ النَّفْس، وضيعَ القدر. وهل يمكن من كان كذلك أن يَقبضَ على ناصيةِ السُّؤْدَد[3]، أَو يجُولَ في مَيدان الشَّرَف؟! لا ورب الكَعْبة! فإِنَّهُ بتلكَ الأَخلاق لا يسود ولو عكف على حَسدِه أَبدَ الدَّهر.

أَما الكبيرُ النَّفْس، فهو إِن بَصُرَ في غيرِه بأمر يُثنَى به عليه، أَو رآه في مَنْزِلَةٍ يُغْبطُ عَليها[4]، فلا يُجول في وهمِه أَن يحسُدَهُ على نعمَته؛ أَو يحطَّ من منْزلتِه. بل

---

(١) الأبي: الممتنع مما يعيبه ـ والمساوف: جمع مسافة.

(٢) يوسد إليه: يستند إليه.

(٣) الناصية: مقدم الرأس. ويراد بالقبض على ناصية الأمر التمكن منه ـ والسؤدد: الشرف.

(٤) الغبطة: أن تتمنى أن يكون لك من المجد والغنى ونحوهما مثل ما لغيرك، مع بقاء نعمته عليه. أما الحسد فهو تمني زوال النعمة من المحسود لتكون للحاسد.

يسعى كل السَّعي لينالَ مثلَ منالِه ويرقى مثل رُقِيِّه. فإن زادَ فيه الإِباء فلا يَرضى لنَفْسِه إلا بما فوق ذلك المقام، ولا يخْتارُ لها إلا أَرضى من تلك النِّعمة.

وضَاعةُ النَّفس تدفع الإِنسان إلى أَن يتَمنَّى زوالَ النِّعمةِ عن غيره لتَكونَ لهُ، وإباؤُها يحفِزُهُ إلى العمل[1] ليفُوزَ بالحُسنى، ويأبى علَيه أَن يُريد بغيرِه السُّوءَ، ليكونَ له الخير. فالفَرقُ بين الخُلُقينِ عظيمٌ.

وقد عَلِمتَ بما شرحناهُ معَنى قولِهم: «الحسودُ لا يسود» لأَنَّ من أخلاق الحسود ضعفَ الإِرادة، وصغرَ النَّفس، والجُبْن عن الإِقدام على عمل السَّادَة. وأَحر بِمن كان كذلك أَن لا يكون سيِّداً. فالسِّيادَةُ وهذه الأَخلاقُ على طَرَفَي نقِيض.

عجيبٌ، والله، أَن يتمنَّى المرءُ ما لا يكونُ إلا بجِدٍّ وعمل ـ وهو كَسولٌ خاملٌ مهمال ـ وأَن يَرجُو ما لا يُكسبُه إلا الحسرَةَ، ولا يَعودُ علَيه إلا بانقِباض الصَّدر. وهذه صفةُ الحاسدين. فاحذر، أَيُّها الناشئ، أَن تكون من الجاهلِين.

رُبما تبلُغ نارُ الحسد بالحاسد حداً يَدفَعُه إلى إيذاءِ محسوده والسَّعي في ضرره، وبذلِ الجهْدِ لإِيصال ضروب الشَّرِّ إليه. وإِنَّما يعملُ ذلك ثائراً لنَفْسه الوضيعة، ظاناً أن هذا العملَ يُطفِئُ جمرةَ طبعه اللئيم.

ومتى بَلَغَ الحسدُ بالحاسد هذا المبلغ، كان وحشاً ضارياً وأَفعى في أَنيابها السُّم ناقعٌ[2]. وكثيراً ما يعودُ الضَّرَرُ عليه فيمُوتُ بغَيْظه، ويُحرَقُ بنارِ حقدِه.

أَلا إن الحسدَ كان فيما مضى أَكبَر أَدوائِنا[3]، التي قضَت على مجدِنا ومدنيَّتنا. وأَراهُ اليوم أَفتكَ وباءٍ فاشٍ في مجتمَعنا. فلا ترى أَحداً يقُوم بما فيه صلاحٌ للبلاد، ومنفعةٌ للأُمَّة، إلا وجدت إزاءهُ من المقاومين الجمَّ الغفير[4]، حَسَداً من عندِ أَنفُسِهم، وبغْياً على الحقِّ. فإن لم نَترُكْ هذا الطَّبعَ اللَّئيمَ، فلا رجاءَ للخيْر، ولا سَبيلَ إلى السَّعادة.

---

(١) يحفزه: يدفعه.
(٢) الأفعى: الحية العظيمة ـ وناقع: مجتمع ثابت. وسم ناقع: بالغ قاتل.
(٣) الأدواء: جمع داء.
(٤) الجم الغفير: العدد الكبير.

تَجنَّب، أَيُّها الناشئ، الحسدَ، فإِنَّه من خُلُق الأَدنياءِ، وصفة الجهلاء. فإِن بصُرتَ بقائمٍ للحق فاعضُدهُ[١] ويسر لهُ السَّبيل، وإِن رأَيتَ نعمَةً أَسبَغَها الله[٢] على عبدٍ من عباده، فاسعَ إِلى مثلِها بقَلبٍ طاهِرٍ ووجدانٍ نقِيّ، فإِنَّك تبلُغُها بإِذن الله.

وإِيَّاك أَن يحملَكَ الحسدُ على مناوأَتِهِ[٣]، فإِنَّك لا تنالُ منه ما تُريدُ. بل رُبَّما وقعتَ في حبائل حسدِكَ[٤]. وقد قيل: «لله دَرُّ الحسد ما أَعدَلَه! بدأَ بصاحبه فقتلَهُ!».

(١) اعضده: أعنه وأنصره، يقال: عضده إذا نصره وأعانه، ولا يقال عضّده بتشديد الضاد بهذا المعنى.
(٢) أسبغها: أتمها.
(٣) المناوأة: المعاداة والمعاكسة.
(٤) الحبائل: المصايد، والمفرد حبالة، ويراد بها المكيدة كما هي هنا.

التعـاون

كن عوناً لغيرك، يَكُن غيرُكَ عوناً لك. وأَحْبِبِ الخَيْرَ لهُ، يُحبِبِ الخَيْرَ لك. فالتَّعاوُنُ من الأُمور التي يَتبادَلُها الناسُ. وقَلَّ من لا يُريدُ لكَ السَّعادة، ولا يُقدِمُ على إعانتِك، إذا عَرَفَ منكَ أَنَّكَ تَوَدُّ لهُ ذلك، وتُسرِعُ لِمَعونَته إن دَعَتِ الحاجَةُ إليها. اللَّهُمَّ أَلا إِن كان مِمَّن فَسَدَت أخلاقُهُم، وسَفُلَت تَربيتُهُم. فكان ممن يُغضون[1] عن مُقابَلَةِ المحسِنِ بالإِحسان؛ فلا يَمدُّون إليهِ يَدَ المساعَدة، ولا ينظُرون إليه بِطَرْفِ المُروءَة[2].

وكثيراً ما يَدفَعُ اللُّؤمُ بهذا الصنفِ من الناس إلى أن يَجزوا من الحَسَنَة السَّيِّئَة، ويَستبدِلوا الذي هو أَدنى بالذي هو خير. ومن فعلَ ذلك كان مِمَّن صَدَق عليه الأَثَرُ: **«اتَّق شَرَّ من أَحسنتَ إليه»**.

أَقَلُّ مَراتِب التَّعاونِ أن تُعينَ غَيرَكَ حِرصاً على أن تُعانَ، متى احتجتَ إلى المَعونة. وأَكملُ تلكَ المَراتِبِ أن تَندفعَ في هذا الأَمر، وأَنتَ غيرُ آملٍ منه فائِدَةً، ولا راجٍ منهُ عائِدة[3]. بل إنكَ تُقدِمُ عليه لأَنَّهُ فضيلَةٌ في نَفسِه. وأَثرٌ صالحٌ يَحتَذي الناسُ مِثالَهُ[4]، لِتَنمُوَ روحُ التَّعاوُن بين الأُمَّة، فَيكونَ من وراءِ نُموِّها اجتماعُ القلُوب، وائتلافُ المجموع، واتِّحادُ الأَفكار، وتَقارُبُ المُيول.

إنَّ مَن تُحسِن إليه تكونُ قد نَقشْتَ في قَلْبِهِ مَحَبَّةً لا تَمحوها إلا الإِساءَةُ. والكريمُ لا يُسيءُ بَعدَ الإِحسان.

وإن أَحسَنْتَ إلى الأُمَّةِ كلِّها، فقد أَقَمتَ في كل فُؤاد مِن أَفئِدةِ أَبنائها

---

(١) أغضى عن الأمر وتغاضى عنه: تغافل.

(٢) العين: الطرف ـ المروءة: النخوة وكمال الرجولية.

(٣) العائدة: الفائدة التي تعود على الإنسان.

(٤) يحتذون مثاله: يقتدون به ويصنعون مثله.

تِمثالاً من المِقة(١)، ومِحراباً من المحبَّة(٢) يبقيانِ ما بَقِيَتِ الأُمَةِ.

أَفرادُ الأُمةِ يَحتاجُ كُلُّ واحِدٍ منهُم إلى الآخر. فإن سَلكوا سَبيلَ التَّعاون، ونَصرَ القويُّ منهم الضَّعيف، وخَفَّفَ الغَنِيُّ آلامَ الفقير، وعَلَّمَ العالِمُ الجاهل، وأَرشدَ المهتدي الضَّالَّ، وأَحبَّ كُلُّ فَردٍ لغيرِه ما يُحبُّهُ لنَفسِه، كان من وراءِ ذلك سعادَةُ المجموع، ونُهوضُ الأُمَّةِ من عَثرة التَّخاذُل، وتَنَبُّهُها من فِراشِ الغَفلة، وبَعثُها من مَرقَد الخُمُول(٣).

وليسَ التَّعاوُنُ قاصراً على الأُمورِ الماديَّة فَحَسْبُ(٤)، بل هو عامٌّ شامِلٌ للأُمور المعْنَوِيَّة أيضاً، وهو فيها آكدُ منه في غيرها.

إن رأَيتَ حائِراً في أَمره، فأَعِنهُ بثاقِب فِكرِكَ(٥) وأَوضح لهُ طريقَ رُشدِه.

وإن وجدتَ مَحزوناً فَخَفِّف عنهُ حُزنَه، بما تُلقيهِ عليه من دروس التَّسْلِية، وما تُرَوِّحُ به الهمَّ عنهُ من كلِماتِ التَّفريجِ، حتى تُسَرِّيَ عنه ما أَلمَّ به(٦) من هَمٍّ وحَزَن.

وإذا أَلفَيْتَ(٧) حائداً عن سبيل الهُدى، سالكاً طريقَ الرَّدى، تائهاً في مَفاوِزِ العَمى(٨) فابذُل الجُهدَ لإرشادهِ بلِيِّن الكلام، والمَوعِظَةِ الحَسنَةِ، والمعروفِ من القول، حتى تَحمِلَهُ على سُلوكِ الصِّراط المُسْتقيم(٩)، والتَّجمُّلِ بالخلقِ الكَريم.

---

(١) المقة: المحبة.

(٢) المحراب: الغرفة وصدر المجلس، وصدر البيت، أكرم شيء فيه، ومنه محراب المسجد، وهو مقام الإمام فيه.

(٣) المرقد: مكان الرقود، وهو النوم.

(٤) حسب: كاف، يقال فلان صديقي فحسب، أي يكفيني عن غيره، والفاء في «فحسب» زائدة لتزيين اللفظ.

(٥) الفكر الثاقب: الوقاد المشتعل.

(٦) سرى عنه الهم: فرجه عنه ـ وألم به: نزل به.

(٧) ألفيت: وجدت.

(٨) المفاوز: جمع مفازة، وهي القفر الخالي.

(٩) الصراط: الطريق.

على هذا دَرَج[١] السَّلَفُ الصَّالح، وفي سُنَّة[٢] التَّعاونِ الماديِّ والمعنويِّ قَد سَلَكوا. وما ضَرَّنا، وضَرَّ الأُمَمَ قبلنا، إلا إِهمالُ هذا الرُّكن الاجتماعيِّ الرَّكين[٣]. فقَدِ استبدَلوا بهِ قُلوباً أَصلبَ من الجلمَد[٤]، وأَخلاقاً ما لانحطاطِها قَرار، حتى صار أَحدُنا للآخر عَقرباً لاسعَة، وأَفعى لادِغة. وما بهذا أُمِرنا، ولا لِمثْلِ ذلك خُلِقنا.

لم نُخلق أَيها النَّشء، إلا لنَكونَ مُتعاونين على دَفع ما يُصيبُنا من الشَّقاءِ، مُتَسانِدين في السَّرَّاءِ والضرَّاء[٥]، عامِلين على محو ما يَنزِلُ بالأُمة من اللأْواءِ[٦].

إِن الأُمَّةَ محتاجَةٌ إِلى المَعُونة، فَمدُّوا إِليها أَيدِيَكم.

هيَ جاهلةٌ، فأَعينوها بالعِلم.

هي فاسدةٌ، فأَعينوها بالإِصلاح.

هي فقيرَةٌ، فأَعينوها بِبذل المال، لِتَفْتَحَ بهِ المدارس، وتُنشئَ المعامل والمصانع.

فإِن فَعلتُم ذلك، كنتم أَبناءَها البارِّين[٧] ورجالها، فَتعاوَنوا على ذلك إِنَّ الله يُحِبُّ المُتعاونين.

---

(١) درج: مشى.
(٢) السنة: الطريق.
(٣) الركين: القوي.
(٤) الجلمد: الصخر.
(٥) متساندين: متعاونين يسند كل واحد الآخر ـ والسراء: الرخاء، والضراء: الشدة.
(٦) اللأواء: الشدة يكون منها الضرر.
(٧) البار: المحسن.

التقريظ[1] والانتقاد

رأَيتُ كثيراً من النَّاس يَسرُّهم المدح، وإِن كان بالباطل، ويَسوءُهم الانتِقاد، وإِن تَجسَّمَ فيهِ الحقُّ. وما ذلك إِلا من غُرور النَّفْس ووَلَعِها بالباطل.

المَغرورُ يُطربُهُ التَّقريظ، ويُرَنِّحُهُ المدح[2]. فكأَنَّ الثَّناءَ عَليهِ راحٌ[3]، متى خالَطَت جَوفهُ ظنَّ أَنه مَلكَ البسيطَةَ ومَن عَليها. وما يَسْتحقُّ ـ لو أَنصفَهُ مُقَرِّظُهُ ـ غير الصَّفْع والصَّقْع[4]. وإِن انتقَدَ علَيه أَحدٌ عمله، وأَبانَ له طريقَ الرُّشدِ فيه، عَبَسَ وبَسَرَ[5]، وولَّى واستكبرَ، واستشاط غَضباً وزَمْجر[6].

أَمَّا العاقلُ الخبير، فلا يَسُرُّهُ مَن يَمدَحُه، لأَنَّ المُقرِّظَ لا يَذكُرُ إلا حَسَناتِهِ، ويطوي كَشحاً[7] عن ذِكرِ سَيِّئَاتِهِ. والمرءُ أَدرى بما له من الحَسَناتِ، فلا يَحتاجُ فيها إِلى إِثبات وإِنما يُلَذِّذُهُ[8] أن يَرى ما يُقابلهُ بالانتقاد الصحيح، لأَنَّ المُنتقِدَ يُظهِرُ له عيوبَهُ، ويُوضحُ خطأَه وينشُرُ ما طُويَ من زلَّاتِه[9]، فمَتى عَلِمَها اجتَنبها، وباعد ما بينَه وبينَها. فَيطهُرُ بذلك من وَضَرِ العُيوب[10]، ويَنقى من جَرائِرِ السَّيِّئات. وصديقُكَ من صَدَقَك لا من صَدَّقَك.

لولا الانتقادُ لَظَلَّ الناسُ في الغرور سادرين[11]، وللآثام مُرتَكِبين، وعن

---

(١) التقريظ المدح في حياة الممدوح بحق أو باطل.

(٢) يرنحه: يجعله يتمايل.

(٣) الراح: الخمر.

(٤) الصفع: الضرب على القفا بجمع الكف ـ والصقع: الضرب على الرأس ببسط الكف.

(٥) بسر: قطب وجهه وتكره.

(٦) استشاط: التهب واحترق ـ وزمجر: أكثر الصخب والصياح.

(٧) طوى عن الأمر كشحاً: تركه وأهمله.

(٨) يلذذه: يجعله يلتذ.

(٩) الزلات: السقطات.

(١٠) الوضر: الوسخ.

(١١) السادر: الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع، وهو أيضاً المتحير.

الحقّ ضالّين، وفي كؤوس هَوى النَّفس كارعين. فهوَ المِنهاجُ الأَقوَمُ[١]، والدَّليلُ الأَقوى وبه تَتَمَحَّصُ الحقائِق[٢]، وتَظهَرُ الفضائل، وتَخفى الأَباطيل وتَعشو عُيونُ الأَضاليل[٣].

وما من أُمةٍ طَرَحت عنها رداءَ الجهل، وكَسرَت عن عُقُولها قُيودَ الوهم ـ فَتَقَدَّمَتْ في سبيل العُمران، وبَلغت من المدنيَّة أَقصى مكان[٤] ـ إلا كان الانتقادُ رائدَ فَلاحِها[٥]، ونسَمَةَ نجاحها[٦]. وما من قوم غرَّتهُم حلاوةُ التَّقريظ، وأَسْكَرَتْهُم خَمْرةُ المديح، وخَدَّرَت هِمَمهُم مَرافينُ الثَّناءِ[٧]، إلا ضَرَبَهمُ الدَّهْرُ بضرباته، ورماهُم بنَكباته[٨].

والسِّرُّ في ذلك، أنَّ الانتِقادَ يَحفِزُ الهِمَّةَ[٩]، فيَبتَعِدُ المرءُ عما هو فيه من سُوءِ الحال، ويَدفعُهُ إِلى مَيدان العمل، لِيَحْمدَ المآل[١٠] فيبذُل الجُهدَ ليكُونَ من المتقدّمين في صالح الأَعمال، التي تُنيلُهُ السَّعادَتين، وتَنفَعُهُ وأُمتَه في الحياتين.

أَمَّا التَّقريظُ ـ وأَقبَحُهُ ما كان في باطل ـ فهوَ يَنفُخُ في أَنفِ الممدوح الغُرور، ويُدخِلُ في يافُوخه[١١] شَيطانَ العَظمَةِ والكبرياء فيظُنُّ في نفسِهِ أَنَّهُ بَلَغَ من الكمال السَّماءَ، حتى طال الجوزاء[١٢] فَتَضْعُفُ هِمَّتُهُ عن كسب الفَضائل، وتَفتُرُ عَزيمتُهُ عن اقتراع العظائم[١٣]. فلا تَنمُو مَعارِفُهُ ومواهِبُهُ[١٤]، إِن كانت له

(١) المنهاج: الطريق الواضح.
(٢) تتمحص: تتنقّى من الأخلاط.
(٣) تعشو العيون: يسوء بصرها.
(٤) أقصى: أبعد.
(٥) الرائد: الدليل.
(٦) النسمة: نفس الروح.
(٧) المرافين: جمع مرفين وهو شيء كالبنج، وهي كلمة إفرنجية عربت حديثاً.
(٨) النكبات: المصائب.
(٩) يحفز: يدفع ويسوق.
(١٠) المآل: العاقبة والمرجع والمصير.
(١١) اليافوخ: الموضع الذي يتحرز من الرأس عندما يكون الإنسان طفلاً، وهو ما تسميه العامة «النافوخ» بالنون.
(١٢) الجوزاء: برج في السماء.
(١٣) اقتراع العظائم: الغلبة عليها.
(١٤) المواهب: العطايا والمراد بها هنا الصفات الغريزية لأنها هبة من الله للإنسان.

عُلومٌ وشَمائِلُ[١]، ويظلُّ جاهلاً مرذولاً، إن كان خالياً من العِلم والفضيلة.

وإنَّ هُناك قوماً لا يَعملُون، إلَّا إذا عَلِموا أن الناسَ يَمدحون أَعمالهم، ويُقَرِّظونَ إقدامَهم. ونَرى قوماً يَزيدُهُم التقريظُ هِمَّةً إلى همتهم، ونفاذاً في الأَمرِ على نَفاذِهم فيه، فلا بأْسَ بِتقريظ عملِهِم، والثَّناءِ علَيْهم لِيزدادوا إقداماً مع إِقدامهِم.

ونَحنُ لا نَذُمُّ التَّقريظَ مُطلَقاً، بل ذَممنا من يُريدُ من غيرهِ أو يُقَرِّظَه بِحَقٍّ أو باطل، ويسوءُه منه أن يَنتقِدَ عليه عملَهُ، إن فَعَلَ ما لا يُسكَتُ عنه. ومن كانَ كذلكَ فهو من الذين يُحبُّونَ أَن يُحمدوا بما لم يفعَلوا. وأُولئك هم في مَجهل[٢] من سفالةِ الأَخلاق، يَهلكُ فيه المَغرورون. فمن سَرَّه التَّقريظ فلا يسُوءُهُ الانتِقاد فالتَّقْريظُ إن كان داعياً للإقدام على العَمل الطيِّب، فالانتِقادُ يَربأُ بالإِنسان أَن يَرِدَ مَواردَ الخطَل[٣]، أَو يَسقُطَ في مزالق الزَّلَل[٤].

وما الامرُ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، إلَّا ضربٌ[٥] من ضروب الانتقاد ولولاهما لَظلَّ الجاهل الفاسدُ سادراً في غُلَوائه[٦] ناشراً للفُسوق عن الحق[٧] كبيرَ•لِوائه.

وبعدُ فإنَّ فِئةً من الناس قد اتخذَت الانتقادَ ذريعةً لِلنَّيل من الخَلق[٨]، وحُجَّةً للوَقيعَة في أَعراضِهم[٩]، فَراشوا سِهامَ السِّباب[١٠] والفُحشِ من القَول، ورَمَوا بها مَن أَرادوا أَن يَنتقدوه. فتراهم لا يَتركُونَ شاردةً مِنَ السَّفاهة

(١) الشمائل: الأخلاق، والمفرد شمال ـ بكسر الشين ـ.
(٢) المجهل: الأرض التي لا يهتدى إليها.
(٣) يربأ به: يرفعه وينهض به ـ والخطل: المنطق الفاسد.
(٤) المزالق: الأماكن التي تزلق فيها الأرجل ـ والزلل: الخطأ والانحراف عن الصواب.
(٥) الضرب: النوع.
(٦) السادر: الذي لا يهتم ولا يبالي بما صنع، والذاهب عن الشيء ترفعاً عنه ـ والغلواء: الغلو، وأول الشباب. والسادر في غلوائه: وهو الذي يمشي كما تأمره النفس الأمارة بالسوء غير مهتم بالعواقب.
(٧) الفسوق عن الحق: الخروج عنه والعدول عنه.
(٨) ذريعة: وسيلة وواسطة ـ ونال منه نيلاً: سبه وشتمه.
(٩) الوقيعة: السب والشتم. وقع فيه: سبه وعابه.
(١٠) رَيْشُ السهام: كناية عن التهيؤ للرمي.

والبَذاءِ[١] والمُنْكر من الكلام إلا وجَّهوها إليه، وما هذا بالانتقاد، وإنَّما هو التَّشفِّي والتَّقريع[٢]. وذلك لُؤْمٌ وخِسَّةُ طَبع يَتجافى[٣] عنهما أُولُو المُروءَة.

إنَّ الغايةَ من الانتقاد صَرفُ المُنتقَدِ علَيه عمَّا هو فيه من جهل أَو خطأ. فالتَّسرُّعُ في الانتقاد، وتركُ الرِّفقِ فيه، داعيانِ لِتعصبِهِ لما هو فيه، وإن وَضَحَ لَه الأَمرُ أَيَّما وُضوح. وقد وَرَد «مَن أَمَرَ بمعروف فَلْيكُن أَمرُهُ بمعروف». فالنَّقدُ يجبُ أَن يكون بالتي هي أَحسَنُ، ليكونَ من ورَائِهِ نجاحُ القَصدِ وفلاحُ السَّعي: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ[٤] حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

لا تَغُرَّنَّكم، مَعشرَ الناشئين، أَقوالُ المحَبِّذين[٥]، ولا كلِماتُ المُقرِّظين، فكثيراً ما يقولونَ غير الحقِّ طَمَعاً في اكتِسابِ قلوبِ المُقرِّظين أَو في دُرَيهِماتٍ تسْقُط من أَيديهِم علَيهم.

وإِياكم أَن تَسلُكوا هذا الطَّريق، فهوَ يُؤدي إِلى الكذِب وما أَقبحَ ذنبَ الكاذبين! وتَمسَّكوا بأَذيال مَن يَنتقِدُ عليكم أَعمالَكُم، ويُبيِّنُ خطأكم، تُرشدوا إِلى أَقوم سبيل.

وإِن رأَيتُم من غيركم ما يُنتقَدُ، فَسدِّدوا خُطُواتِهِ[٦]، وانصحوا لهُ بالإِقلاع عن زَلَّاته[٧]، بالكَلِمِ الطَّيِّبِ والمعروف من القَول.

وإِياكم أَن تَستعمِلوا خُشونةَ الكلام، فإِنها أَوخَزُ[٨] من السِّهام، وأَشدُّ من وَقع الحُسام[٩]. وهي مُضَيِّعةٌ للفائدة، مُنَفِّرَةٌ للقلوب.

---

(١) البذاء: التكلم بفحش القول.
(٢) التشفي: الانتقام ـ والتقريع: التعنيف والإغلاظ.
(٣) يتجافى: يترفع ويتنحى.
(٤) الولي: الناصر، والصديق، والمحب ـ والحميم: الصديق كل الصديق.
(٥) المحبذ: من يقول لك: حبذا ما تفعل، بمدح عملك.
(٦) سددوا خطواته: أرشدوه إلى السداد والاستقامة.
(٧) الإقلاع: الابتعاد والترك ـ والزلات: الخطيئات.
(٨) أوخز: أشد وخزاً، والوخز الطعن بالرمح والإبرة ونحوهما ـ والسهام: النبال.
(٩) وقع الحسام: شدة ضربته ـ والحسام: السيف القاطع.

بل كونوا من أَهل اللِّين والرِّفق، تَنالوا ما تُريدون. وقد قيلَ: «الماءُ مَعَ رِقَّتِه، يَقطَعُ الحَجَرَ مَعَ شِدَّته».

وقد خاطَبَ الله نَبِيَّيْهِ ـ هارون وموسى ـ في شأْن فِرعونَ بقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ[1] ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ[2] ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

(١) طغى: جاوز الحد.

(٢) يخشى: يخاف.

التعصب[1]

تَعَصَّبْ لجِنْسِكَ ولُغَتك ودينكَ ومَذهبِكَ الاجتماعي ونحلَتكَ[2] السِّياسيَّة، ولا يَسُوءُكَ من غيرك هذا التَّعصُّبُ. بل دَعْ كُلَّ إنسانٍ ومُعتقَدَه، فلَسْتَ على أَحَدٍ بمسيطِرٍ[3]. وكُلُّ امرئ حُرٌّ في أَن يَدينَ بما يَشاءُ، وأَن يَتعصَّبَ لما يُريد.

بِهذا قَضتِ الأَديانُ وحَكَمتِ المَذاهِبُ الاجتماعيَّةُ الصحيحة. وفي هذهِ السَّبيل سارَ المتَمَدِّنون من الأُممِ، كَما سارَ آباؤُكَ، أَيها النَّاشِئُ، من قَبل.

التَّعصُّبُ شيءٌ جميلٌ، ومَذهبٌ قَويم، وسُنَّةٌ واضحةٌ[4]، ومَنهجٌ سَديدٌ[5]. فهو الذي يحفظُ على الأُمَّة لُغتَها وجِنسِيَّتَها وأخلاقَها الفاضلة وعاداتِها الطَّيِّبة، ويَحمِلُها على أن تكونَ شديدةَ البأس[6]، قَويَّةَ السَّاعِد، مَنيعَةَ الجانب، ومتى فَقَدَتْ هذا الخُلُقَ ـ خُلُقَ التَّعَصُّبِ الكريم، بما طرأَ علَيها مِن فساد التربية ـ أضاعت مُمَيّزاتها، وخَسِرَت قُوَّتَها وبأسَها فكانت مَعَ الهالكين، والذَّاهبين الأَوَّلين وما هَلاكُها إِلَّا موتُ الشُّعور، وفسادُ الأَخلاق، وذَهابُ المُمَيِّزات. وإِنما الأُممُ الأَخلاق.

تعَصُّبُكَ لِدينكَ يَدعو غيرَك أن يَرعى حُرمتَكَ، وعَدمُ الاكتراث لهُ يَحمِلُهُ على أن لا يَعبأ بك[7].

---

(١) التعصب: التشدد. تعصب في دينه ولغته: كان شديداً فيهما، غيوراً عليهما، مدافعاً عنهما. وتعصب لفلان ومع فلان: مال إليه وانتصر له، وتعصب عليه: قاومه ومال عليه.

(٢) النحلة: المذهب والعقيدة.

(٣) المسيطر: الرقيب الحافظ. والمتسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله ويكتب عمله. فكأنه مأخوذ من سطر يسطر سطراً بمعنى كتب.

(٤) السنة: الطريقة.

(٥) المنهج: الطريق الواضح ـ والسديد: القويم.

(٦) البأس: القوة، والشدة، والشجاعة.

(٧) اكترث له وعبأ به: اهتم به وبالاه.

ومعنى التَّعصُّب للدين القيامُ بِفُروضه، وانتهاجُ سننِهِ[١] واتِّباعُ أوامرِه، واجتنابُ نواهيه، والتَّخَلُّقُ بالأخلاق الجميلَة التي يحفِزُ[٢] التديُّنُ الهِمَمَ إليها.

وليس معناه أن تكرَه غيرَك، ممن ليس على دينك، وتَنصِبَ الحبائلَ[٣] للضَّرَر به، وتَبذُلَ الجُهدَ لِتُلحِقَ به الأذى والمكروه. فإنَّ هذا ليس من التَّعصُّب للدِّين في شيء. وإنَّما هو تَعصبٌ للوَحشيَّة على المدنيَّة، وضربٌ من ضُروب الهمَجيَّة، لأنَ كُرهَ المخالِفِ في الدين، وإلحاقَ الأذى به، عَمَلُ من لم يَعرِف من الدين إلَّا الانتسابَ إليه. فالدِّينُ وهذا العَمل على طَرَفَيْ نقيض[٤].

أمَّا ما يَفعلُهُ بعضُ من لا خَلاقَ لهم[٥]، مِمَّنْ لَبِسوا الدِّين مَقلوباً، فهؤلاء لَيسوا في العير ولا في النَّفير[٦]. وما هُم بِحُجَّةٍ على الدين. بل لله الحُجَّةُ البالغةُ[٧]. وليس في دين الله شيءٌ مِما يَزعُمون.

إنَّ مَن يَدَّعون التَّعَصبَ للدين، أَكثرُهم لا يَعقِلون. ولا يعرفون منه إلا أَنَّ آباءهم كانوا به يَدينون. فهم في ظاهرِ الأمر مُتَدَيِّنون. وما هُم في الحقيقة إلَّا مُقلِّدون، يَلوكونَ من الكلام ما لا يَفهمون، ويَنتَسبون إلى ما لا يَفقَهُون[٨]، ويُبغِضون من لا يَدينُ بدينهِم ويَكرَهون، مُعتقدينَ أنَهم بِمثل هذا يَنجُون، وإلى الله يَتقرَّبون، أَلا ساءَ ما يَزِرون[٩]، وقَبُحَ ما يفعلون.

وهناك طائفةٌ ليست من العامَّة الجاهلة، ولا من الخاصَّة الراقية، تَزعُمُ

---

(١) الانتهاج: السلوك ـ والسنن: جمع سنة وهي الطريق؛ والسنة في الدين: ما كانت دون الفرض.
(٢) يحفز: يدفع ويسوق.
(٣) الحبائل: المكايد، وأصل معناها: المصايد.
(٤) على طرفي نقيض: أي هما متخالفان.
(٥) الخلاق: النصيب الوافر من الخير.
(٦) ليسوا في العير ولا النفير: أي ليسوا ممن يعبأ بهم.
(٧) الحجة البالغة: الدليل الذي يحمل على الخضوع.
(٨) يفقهون: يعلمون ويفهمون.
(٩) يزرون: يحملون، والمراد ما يحملون من أثقال هذه الأعمال المخالفة للدين، والماضي وزر، والوزر بالكسر: الحمل الثقيل، والذنب.

التَّعَصبَ للدين، وهي لا تَقومُ بشعائره[١]، ولا تَتمَسَّكُ بِسُنَنِهِ وفرائضه، وتدعو النَّاسَ باسمه. وربما كانت جعبَةُ عَقيدتِها[٢] أَفرغَ من جَوفِ الطَّبلِ.

وما التَّعصب للدين ـ كما أسلَفنا ـ إلا التَّخلُّقُ بأَخلاقه، والقيامُ بما يأمرُ به، والبُعدُ عما ينهى عنه. فَهُم يَغُرُّونَ العامَّة، ليُغَرروا بِعُقولها[٣]. وهذه الطائفةُ أيضاً ليست حُجةً على الدِّين، لأَنها تدعو باسمه رَجاءَ المنفَعةِ الخاصَّة، وتُنَفِّر السُّذَّج مِمن لا يَدين بدينهم، بُغية السَّيطرةِ على عقولهم، وأملاً بالسُّلطةِ على أرواحهم. والله بَريءٌ منها ومن أعمالها.

وتَعصُّبُكَ لجنسِكَ ولُغَتِكَ، يَجعلُكَ مرهوبَ البأسِ[٤] عندَ غيرِك، رَفيعَ المَنْزِلَةِ لَدَيهِ. واحتقارُكَ إيَّاهما يَدَعُكَ مَسخوراً بكَ[٥] عندَ مَن لا تَجمَعُكَ وإِيَّاهُ لُغَة، ولا تَضُمُّكُما جِنسِيَّة. وهذا أمرٌ واضِحٌ لا يَحتاجُ إِلى بُرهان.

وكما أنَّ تَفسيرَ التَّعصُّب للدين على غيرِ وجهه أمرٌ مذمومٌ ـ كما عَلِمت ـ فكذلك تَفسيرُهُ، في مَقام الجِنسيَّةِ واللغة ـ باحتِقارِ لُغاتِ النَّاس وجنسيَّاتِهِم، وإلحاقِ الأَذى والمكروه بهِم ـ أمرٌ لا يَتَّفِقُ مَعَ التَّعصُّب المَحمُود، ولا يَجري مَعَ الحَقِّ في مَيدان. فَعليْك، أيها الناشئُ، أن تحترمَ لُغَةَ غَيرك وقَوميَّتَه، كما تُحبُّ منهُ أن يحترِمَ منكَ ذلك.

* * *

وتَعَصُّبُك لما تَراهُ حقاً ـ من المذاهب السياسِيَّة والاجتماعيَّة ـ ومُناضَلَتُكَ عنه[٦]، أمرٌ يَدعو إِليه الواجب، ويَطلُبُهُ منك الوِجدان. فَناضل عن ذلك بالبُرهان الساطع[٧] والدَّليلِ القاطع، والحُجَّة القامعة[٨]، والمُجادَلَةِ النافعَة،

---

(١) شعائر الدين: أعماله التي تقرب إلى الله، والمفرد شعيرة. والشعيرة أيضاً: العلامة.
(٢) جعبة عقيدتها: وعاؤها. والجعبة في الأصل: وعاء السهام.
(٣) غرر به: عرضه للهلكة.
(٤) مرهوب: مخوف ـ والبأس: الشدة، والشجاعة، والقوة.
(٥) مسخوراً بك: مستهزءاً بك.
(٦) المناضلة: المدافعة والمحاماة.
(٧) البرهان: الدليل والحجة ـ والساطع: اللامع. وأصل معنى السطوع الارتفاع والانتشار.
(٨) القامعة: القاهرة المذللة.

وأَربأ بِنَفْسِك[١] أن تَرِدَ مَوارِدَ الشَّطَط[٢] في القول، وأن تَلِجَ[٣] ـ للتوصُّلِ إلى بُغيتك ـ أبوابَ الفُحش والبِذاءِ[٤]، فإنَّ لغَيرك رأياً يَجبُ أن يُحترم، ومَذهباً يُحبُّ تَعزيزَه[٥]، كما تُحبُّ تَعزيزَ رأْيك واحترامَ مَذهَبك فإن استطَعتَ أن تَرجِعهُ[٦] عن مذهبه إلى مَذهَبك بالحُجَّة البالغَة، والبرهان الدَّامغ[٧]، واللِّيْنِ من القَول، فافعل. وإلَّا فَدَعهُ وشأنَهُ فلَستَ عَليه بِمُسَيطِر.

واحذَر أن تَتَّخِذَ تَعصُّبك ذريعةً للانتقام[٨]، فليس هذا من شأن الكِرام. ولا تَدَع الاختلافَ في الرأْي، والتَّفرُّقَ في الدِّين أَو الجنس أو اللغَة، يَنهشانِ جسم الاجتماع، ويَفرِيانِ إهابَ المدنيَّة[٩]، ويُمزِّقان شَملَ الإنسانيَّة، خُصوصاً إذا كان الاختلافُ مَعَ أبناءِ الأُمَّة الواحدة، والوطن السِّياسيِّ الواحد.

فإلى التَّعَصُّب الحميد، أيها الناشئ، أدعوك، فإنَّه رسولُ السَّعادَة، وبَريدُ التَّرَقِّي[١٠].

فَتَعصَّب لِما تَعتَقِدُ أنَّهُ الحَقُّ، وتَمسَّكْ بِدينك وقَومِيَّتِك ولُغَتِك ـ على الوجه الذي شَرَحتُهُ لك ـ تَكُن من المفلحين.

---

(١) اربأ بنفسك: ارفعها ونزهها.
(٢) الشطط: مجاوزة الحد.
(٣) تلج: تدخل.
(٤) الفحش والبذاء: قبيح القول.
(٥) تعزيزه: تقويته وتشديده.
(٦) رجعه يرجعه ـ بوزن ضربه يضربه: وقد يقال: أرجعه.
(٧) الدامغ: القاهر الذي يبطل حجة الخصم، وأصله من الدمغ وهو شج الرأس حتى تبلغ الشجة الدماغ.
(٨) ذريعة: وسيلة.
(٩) يفريان: يشقان ويقطعان.
(١٠) البريد: الرسول.

ورثــة الأرض

من أصلَحَ أمراً كان صالحاً لأَن يُهيمِنَ عليه[1] وإن لَم يُورِّثه إِيَّاهُ آباؤُهُ وأَجدادُهُ. ومن أَفسَدَهُ أَفلتَ من يَدِه وصارَ إلى غيره، وإن كان بِيَدِهِ صُكُوكٌ[2] تُثبِتُ وِراثَتَهُ إِيَّاهُ، وشُهودٌ عَدلٌ يُقِرُّونَ أنهُ مِلكهُ.

كُلُّ ما في الوجُودِ مِلكٌ لله يُصَرِّفُهُ كَيفَ يَشاءُ، ويَصرِفُهُ عمَّن شاءَ إلى من شاءَ. وقد عَلَّقَ الله سُبحانَه مَشيئَتَهُ على وجودِ أسبابٍ تدعو إلى ذلك. فمن سَعى لهذه الأَسباب سَعْيَها، ودَخلَ البُيوتَ من أَبوابها، كان أحقَّ بِوراثَة الأَمرِ مِمَّن لا يَصلُحُ له.

الأُممُ، على هذهِ البَسيطة، خَدَمَةٌ لله فيها، أُجَراءُ يعمَلونَ لِعُمرانِها. فمن كان صالحاً لهذه الخدمَةِ، أَفسَحَ لَهُ في الولاية علَيْها. ومن أساءَ انتزَعها منه قَسراً[3].

إذا استخدَمتَ أَحداً لِيعمَل لك شيئاً، فإنكَ تُراقبُهُ مُراقَبةً تامَّة. فإن رأَيته قد أَحسَنَ الخِدمَةَ أَبقَيْتَهُ على عَمَله، وإن زادَ في الإِحسان زِدتَهُ في الأجر. وإن بَصُرتَ به قد أساءَ وشَوَّهَ ما تُريد تحسينهُ، أنذَرْتَهُ بادئ ذي بَدأَةٍ، حتى إذا لم يَبق لك أَمل في تجويده العملَ، انتزَعت ما كان في يَدِه من عملِك، وطَرَدْتَهُ من خدمتك. وتكُونُ قد أحسَنْتَ فيما فعلتَ كُلَّ الإِحسانِ. وإن تَغافَلتَ عن إِساءَته،

---

(١) يهيمن: يراقب ويحافظ. والمهيمن: الرقيب، وهو من أسماء الله أيضاً لأنه قائم حفيظ على خلقه وأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم.

(٢) الصكوك: جمع صك وهو الكتاب، وكتاب الإقرار بالمال أو غيره. ومن الغريب أن الإفرنج أخذوا هذه الكلمة من لغتنا إلى لغتهم مصحفة فقالوا «شك» ونحن اليوم أخذناها عنهم بتصحيفها، واستعملناها في مصالحنا التجارية وغيرها. وحبذا لو نرجع إلى تراث آبائنا في الأقوال والأفعال.

(٣) قسراً: قهراً.

أو لم تُدرِكْ فَسادَ صُنعِه، كانت عاقبَةُ أمرِكَ الخُسران، ونِهايةُ مَصلحتِكَ الخراب. ولا يَرضى بذلك إلا من سَفِهَ نفسَه.

الإنسانُ خَليفةُ الله في الأرض، وإليه وَكَلَ[١] أَمرَ عمرانِها وتجويدها.

فإن أحسنَ السَّيرَ في مناكبها[٢] ـ فَدَبَّرَ شُؤُونها، وعَمَرَ أَقطارَها، واستخرَجَ خيراتِها، وأثارَ كامِنَ ثَروتِها[٣]، وسارَ في مَناهِجِ العدل فيها[٤]، ونَشرَ العلمَ الصَّحيحَ بينَ سُكَّانِها، ولم يَحِدْ عن العَمَل بالأَناظيم[٥] التي سَنَّها الخالِقُ سُبحانَهُ ـ كان خَليفَتَهُ فيها حقاً، وظَلَّ بِيدِه زِمامُ أعمالها.

وإن أساءَ السيرَةَ، ولم يحسِنِ القيامَ على ما استُودع، حَلَّ به ما حلَّ بغَيْرِه، فَصارَ ذَليلاً بعد العِزّ، وضَيعاً بعدَ الرِّفعة، محكوماً بعدَ أن كانَ حاكماً، فَقيراً بعدَ أن كانَ غَنياً، وأَورَثَ الله ما كان بِيدهِ غيرَهُ، ونَزعَ عَنه لباسَ الإمارة، وأَلبسَهُ من اختارَهُ لها. وإلى ذلك الإشارة بقولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ[٦] مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] والمراد بالصَّالحين في هذا المقام مَن كانوا صالحين لِعَمارتها، وتجويدِ أعمالها وتحسين سُكَّانِها: بنشرِ العِلم وبَسطِ لِواءِ العَدلِ، والاحتياطِ لِدَفع العَدُوّ، والأَخذِ بيدِ الأَعمال النَّافِعة كالزِّراعة والصِّناعةِ والتِّجارة. وليسَ المُرادُ بهم من يُطيلونَ الرُّكوعَ والسُّجود، وهم عن اتخاذِ الأَسبابِ لِوَراثة الأَرض هُجودٌ[٧] فهذا أمرٌ روحيٌّ مَحضٌ[٨]، تعودُ مَنفَعَتُهُ في الآخرة على القائم به وحده. وذلك أمرٌ ماديٌّ لا يكون إلا بالوَسائلِ التي هَدَى الله إليها، والأَسباب التي من رعاها[٩] حقَّ رعايَتها كانَ بيَدِه زمامُ الأَمر والنَّهي.

---

(١) وكل: سلم.

(٢) مناكب الأرض: نواحيها وجوانبها وطرقها.

(٣) أثار: استخرج وأظهر. وأصل معنى الإثارة: التهييج والتحريك ـ والكامن: المختبئ.

(٤) المناهج: جمع منهج وهو الطريق الواضح.

(٥) الأناظيم: جمع نظام.

(٦) الزبور: الكتاب المنزل على نبي الله داود عليه السلام. والزبور في اللغة: الكتاب.

(٧) هجود: نائمون، والمفرد هاجد.

(٨) المحض: الخالص الذي لم يخالطه غيره.

(٩) رعاها حفظها وتعهدها.

أيها النَّاشِئونَ، إنَّ أُمَّتكُم قد عَراها[١] فَسادٌ في أخلاقها صَرَفها عن العمل النافع، وَصَدَفها[٢] عن الأَسباب التي تَجعَلُها صالِحةً لِعُمران الأَرض ووراثَتها، فَحَلَّ فيها الشَّقاءُ، ونَزلَ بها البلاءُ، وأناخت فيها اللَّأْواءُ[٣]، واستَحكَمَ فيها الدَّاء وأنتم مَوردُ سعادَتِها، ومَنْهلُ رَجائِها[٤] ومُخفِّفو شِدَّتها، وأطبَّاءُ أدوائِها[٥] فأَصلِحوا من أمرها وسَدِّدوا خُطُواتِها[٦]، وسَيِّروها في مَناهج العمل الصَّالح، حتى تكون للأَرض وارثةً، ولِعُمرانِها خادمة، فَتعودَ إلى سيرتها الأُولى، وتَرجعَ في حافِرَة مجدِها السَّابق[٧]. فقَد كَفاها ما نَقصهُ العدُوُّ من بلادِها، وما أصابها من ضَعف أخلاقِها وَمُمَيِّزاتِها ومُقَوِّماتِها.

أنتم أنتم أيها النَّابتون، نِبراسُ الأَمل[٨]، ونَجم الهدى، وهَدَفُ العلا[٩] وغَرَضُ المُنى. فأَحسِنوا لِأُمَّتكم، وابذلُوا كُلَّ هِمَّتكُم، وأوقدوا نارَ عَزيمتكم، تكن لكم أُمَّةٌ صالحةٌ، تَحيَوْنَ بها حياةً طيِّبةً، وتحيا لكم ناهضةً عظيمةً راقية.

---

(١) عراها: أصابها.
(٢) صدفها: صرفها.
(٣) أناخت: نزلت وحلت ـ واللأواء: الشدة.
(٤) المنهل: المورد.
(٥) الأدواء: جمع داء.
(٦) سددوا خطواتها: أرشدوها إلى طريق السداد والصواب.
(٧) رجع فلان الطريق في حافرته: عاد في التي جاء فيها.
(٨) النبراس: المصباح.
(٩) الهدف: الغرض الذي ينصب ليرمى إليه.

الحادث الأول

تَنبَّه للحادث الأَوَّل، فإِنَّ فيهِ الصُّعودَ أو الهُبوط، والتَّقَدُّمَ أو التَّأخُر، والموتَ أو الحياة.

رأينا الناسَ ـ كثيراً منهم ـ لا يَأبَهون[١] لأَوَّلِ طارئ ولا يُبالونَه، كأنَّما هو أمرٌ غيرُ ذي بال[٢]. ولو عَلِموا أنَّ عَواقِبَ الأُمورِ تَلْحَقُ أوائِلها، وتَسيرُ سيرَتَها، لَتنبَّهوا للحادث الأَوَّل، وبَذَلوا كُلَّ جُهْدٍ لِدفْعه، وتَلَقَّوْهُ كما تَتلَقَّى الجبالُ الرَّاسِياتُ طَوارئَ النكبات[٣].

النَّتائِجُ تَتْبَعُ المُقَدِّماتِ فَساداً وصَلاحاً، فإِذا صَلحت المُقدِّمات صَلحت النتائِجُ، وإِن فَسدَت فَسدَت.

يَقومُ بعضُ النَّاسِ بعمل، ويَسعى إِليه كُلَّ السَّعي، وبينا هو قائمٌ به، يَطرأُ عليهِ طارئٌ حقيرٌ أَو عَظيمٌ، عن إِتمام ما قصدَ إِليه، ويَتثبَّطُ عنه[٤]، وتَضعُفُ عَزيمَتهُ قَبلَ بُلوغِ المُراد. وما ذلك إِلاَّ من فَقدِ الصبرِ، وجُبْنِ النَّفْس. وإِنَّما الصَّبْرُ عنْدَ الصَّدمَةِ الأُولى.

ويَنهَضُ غيرُهُ إِلى أَمر، فَتنصبُّ عَليه الطَّوارئ، وتُحيطُ بِه العَوائق، وتَنهدُ إِليهِ المُثبِّطاتُ[٥] من كُلِّ جانب، فَيتحمَّلها رابط الجأش، ثابتَ العَزيمة، إِلى أن يَتغَلَّبَ عَلَيها. ثمَّ يسيرُ نحو ما قَصد له، بِهِمَّةٍ لا تَعرِفُ الكلال، حتى يَنالَ ما يُريد. وما ذلك إِلّا لأَنَّهُ صَبَرَ على الحادث الأَوَّل، وتَنبَّه لِبادئِ الطَّوارئ، ودَفعَ

---

(١) لا يأبهون: لا يلتفتون ولا يعبئون.
(٢) أمر غير ذي بال: لا يفتكر فيه ولا يهتم له.
(٣) الطوارئ: الحوادث ـ والنكبات: المصائب.
(٤) يتثبط: يتعوق ويتباطأ.
(٥) تنهد: تسرع وتصعد ـ والمثبطات: المعوقات.

عَنهُ هاجِسَ الجبنِ والجزَع[١] بسببِ ما أُوتِيه من شَجاعَة القَلب، وما تَرَبَّى عَليهِ من الصبر عندَ أُولى الصَّدَمات.

وما نَراهُ من خيبَة كَثيرٍ ممَّن يَقومُ بالأَعمال، إنما هو مُسبَّبٌ عن الجزَع عنْدَ الحادِثِ الأَوَّل. فَتنبَّه للحادِث الأَول.

السُّكوتُ عنْد أَوَّلِ فسادٍ يَعرو[٢] ما تَعتنِقُهُ من العقائد، داعٍ لسَريانِ الفسادِ إلى سائره.

وجُبْنُكَ في الدِّفاعِ عن ثَغْرِ حَقِّك[٣]، سَببٌ لِتغلغُلِ العدُوِّ في أَحشائِه.

وما ولوعُ الإِنسان بالشَّرِّ[٤]، وضَراوتُهُ بالمُنكر[٥]، إلَّا لاستهانته بكَبحِ جِماحِ نَفْسِهِ[٦] الأَمَّارَةِ عنْدَ أَوَّل مَيل للفساد.

والغَيثُ[٧] أَوَّلُهُ القَطْر. ومُعْظَمُ النَّارِ من مُسْتَصْغَرِ الشَّرَر. والنَّوى[٨] أَوَّل الشَّجرِ.

وداءُ الخُمار[٩]، والانهِماكُ في العُقار[١٠]، من الكأس الأُولى.

وتَتييمُ الغرام[١١]، من أَوَّل السِّهام.

والحربُ أولُها الكلام، وأَوسَطُها الضِّرام[١٢] وخِتامُها الحِمام[١٣].

---

(١) الهاجس: ما يدور في الخلد ويخطر بالبال ـ والجزع: الاضطراب، وهو نقيض الصبر.

(٢) يعرو: يصيب.

(٣) الثغر: الشق بين الجبلين وموضع المخافة من البلد يخاف منه هجوم العدو وإضافة الثغر إلى الحق مجاز.

(٤) الولوع بفتح الواو: الولع وكلاهما مصدر ولع يولع، بوزن وجل يوجل.

(٥) الضراوة بالأمر: تعوده حتى يصير عادة.

(٦) الكبح: جذب الدابة باللجام لتقف فلا تجري ـ والجماح: أن يركب الفرس رأسه لا يثنيه شيء ولا يرده شيء، ومثله الجموح.

(٧) الغيث: المطر.

(٨) النوى: بذر التمر ونحوه.

(٩) الخمار ـ بضم الخاء: صداع الخمر وأذاها.

(١٠) العقار ـ بضم العين: من أسماء الخمر.

(١١) تتييم الغرام: تذليله صاحبه وتعبيده إياه.

(١٢) الضرام: الاشتعال.

(١٣) الحمام: الموت.

وإن تَجبَهْ[١] كلَّ حادِث قَبْلَ أن يَجبَهَك، وتَدفَعْ كلَّ طارئ قَبلَ أَن يَعُشَّكَ[٢]، تأمنِ الغَوائِل[٣] وتَعِشْ مُطمئنًا في سِربِكَ[٤]، سَعيداً في عَملك، عزيزاً بين قومك.

أيها النَّاشِئون، إنَّ من أَدوائِنا[٥] ـ التي تَحولُ بَينَنا وبينَ ما نَشْتَهي ـ الجَزَعَ عندَ الحادِثِ الأَوَّل، وعَدَمَ الصَّبر عندَ الصدْمَةِ الأُولى. فذلك الخُلُقُ، ما مَلكَ نُفوسَ قوم إلا صَيَّرَهم عَبيد العصا[٦]، وأَلبسهُم رِداءَ الذُّل، وجعل سَعيهُم سُدًى، وعَمَلَهُم هَباءً مَنثوراً، تَذروهُ رِياحُ الجُبنِ والجَزَع[٧].

فَتعوَّدوا، رَعاكُم الله، الصَّبر، وتشدَّدوا عندَ الحادِثِ الأَوَّل، يَسهُلْ عَلَيكم تَلقِّي ما بعدَه، وتكونوا في أَعمالِكم ناجحين.

(١) تجبه: تدفع وتمنع. وأصل معنى الجبه: ضرب الجبهة.
(٢) يعشك: يضربك، أو يطلبك، يقال: عشه إذا ضربه وعشه إذا طلبه.
(٣) الغوائل: المهلكات.
(٤) السرب بكسر السين: النفس.
(٥) الأدواء: جمع داء.
(٦) عبيد العصا: أذلاء.
(٧) الهباء: الغبار، أو شيء يشبه الدخان ينبث في ضوء الشمس ـ ومنثوراً: متفرقاً. وتذروه: تفرقه وتطيره.

انتظر الساعة

نَجاحُ العمل أن يَتَوَلَّاهُ أهلُه. والإِخفاقُ[١] فيهِ أَن يُوَسَّدَ إِلى غيرِ أهلِهِ[٢].

ما رأينا عملاً من الأعمال تَوفَّقَ فيه القائمون به، إلا كانوا من الصالحين له. وما شاهَدنا مصلحةً من المَصالح أخفق فيها عمالها، إلا كانوا من الطُّفَيْلِيِّين عليها[٣].

إنَّ لكلِّ عَمَلٍ وُسِّدَ إلى غيرِ أَهلِه نهايةً، هيَ الخَراب، وساعةً يَنْتهي إِليها أَهله، هي الخَيْبَةُ فيه. وإِلى ذلك الإِشارةُ في الحديثِ الصَّحيح: «**إذا وُسِّدَ الأَمرُ إلى غيرِ أَهلِه فانتظِرِ السَّاعة**» أَي ساعَةَ الإخفاقِ فيه وفسادِه.

ومتى فَسَدَ هذا الكَون، وتَمادَى مَن عليه في الفُسوق والعصيان، وأوسَعوا الخُطا[٤] في التَّفرُّق بعدَ الاجتماع، والتَّخريب بعد العُمران، والكُفْر بِسنَنِ الله[٥] بعدَ الإِيمان، كانت ساعَتُه، وقامت قِيامَتُه، وصَدَمَتْهُ الصَّدَمات، تتلوها النَّكبات[٦]، يَومَ تَرجُفُ الرَّاجفةُ[٧]، تتْبَعُها الرَّادفة[٨]، قُلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ[٩] أَبصارُها خاشعةٌ[١٠]. وإِنما يكونُ ذلك، لأَنَّ أهلَهُ لم يَبْقَوْا صالحين له، بما أَتَوهُ مِن ضُروب الفُسُوقِ[١١] عن الأَنظمة التي سَنَّها الله لِيعمَلوا بها، فحادوا عنها،

---

(١) الإخفاق: الخيبة، أي عدم النجاح. أخفق في الأمر: لم ينجح فيه.

(٢) يوسد: يسند.

(٣) الطفيلي: من يدخل في أمر لم يدع إليه، نسبة إلى طفيل: رجل من أهل الكوفة كان يأتي الولائم من غير أن يدعى إليها.

(٤) الخطا: جمع خطوة.

(٥) سنن الله: أنظمته التي سنها لعباده.

(٦) تتلوها: تتبعها.

(٧) ترجف: تضطرب ـ والراجفة: المراد بها النفخة الأولى التي تكون مقدمة ليوم القيامة.

(٨) الرادفة: التابعة، والمراد بها النفخة الثانية.

(٩) واجفة: مضطربة خائفة.

(١٠) خاشعة: ذليلة خاضعة.

(١١) الفسوق عن الشيء: الخروج عنه.

وَسَلَكوا غير سبيلها. وإنَّ الله يُمهل ولا يُهمِل. حتى إذا لم يَبْقَ في قوس الرَّجاءِ منْزَعٌ[(١)]، أخذَ الفاسقَ عن سُنَّته أَخذَ عزيزٍ مُقْتدِر، وأَوردَهُ مَوارِدَ ما كسبتهُ يَداهُ.

تلكَ سُنَّةُ الله، ولَن تَجدَ لسنَّةِ الله تبديلاً.

ما من قوم عُهِدَ إليهم في أمر، فلم يحسِنوا في سياسته، ولم يَرْعَوْهُ حَقَّ رِعايتِه[(٢)] إلا انتزَعَهُ منهُم من عَهِدَ إليهم فيه ووسَّدَه إلى غيرهم ممَّنْ يراه صالحاً له فإن أبقاهُ في يَدِ مَن أساء التَّصرُّفَ فيه، فانتظِر ساعَةَ خرابه.

التَّوفيقُ في الأَعمال أن تُوسَّدَ إلى صالح أهلِها. فإن يُعهدْ في العلم إلى الجُهَّالُ، عمَّ الجهْلُ، وسَاد أهلُهُ، فساء بذلك المصير.

وإن تُسنَدِ الصِّناعاتُ إلى من لا يُحسنها، كانت عاقبةُ ذلك الخُسرانَ وفسادَ الأَعمال.

وإن أُلقيت إلى الفُسَّاق، أو الجهلَةِ في الدِّين، مقاليدُ[(٣)] الوعظِ والإرشادِ، ومُنِحُوا مناصب التَّدْريس، وأُقعدوا على منصَّات الأَعمال الدِّينيَّة[(٤)]، ضَلَّلوا النَّاس وسلَكوا بهم غيرَ سَبيل الهُدى. وفي ذلك ما فيه من إضعافِ الدِّين في نُفُوس العامَّة، وتَشْويه محاسنِه في عُيون الغريبِ عنهُ.

ومتى وُسِّدَت أَعمالُ الدَّولَة إلى الأغرارِ[(٥)] ـ الذين لا يعرفونَ منها إلا أَسماءَها ـ أو إلى الذين لا يَرقُبُون في مصالحها إلاً[(٦)] ولا ذِمَّة ـ بل يعمَلونَ لَيْلَ نَهارَ على ما يُضعِفُ بأسها، لِيُتْرِعوا حقائبهم[(٧)]، ويُشبِعوا بُطُونَهُم، وإن كان في ذلك الخراب ـ فانتظر السَّاعة، وارتَقِبْ قِيامَةَ الدَّولة[(٨)]. وإلى كل ذلك الإشارةُ في الحديثِ: «**استعينُوا على كُلِّ عَمل بصالح أَهله**» فإن استعَنَّا على الأَمرِ بالصالح

---

(١) لم يبق في قوس الرجاء منزع: لم يبق أمل ولا رجاء ـ والمنزع، بكسر الميم: السهم.
(٢) لم يرعوه: لم يحفظوه ولم يتعهدوه.
(٣) المقاليد: المفاتيح، والمفرد مقلاد.
(٤) المنصات: جمع منصة ـ بفتح الميم وكسرها ـ وهي الكرسي. وأصلها الكرسي ترفع عليه العروس في جلائها لترى من بين النساء.
(٥) الأغرار: جمع غر، وهو من لم يجرب الأمور.
(٦) الإل: العهد.
(٧) الحقائب: جمع حقيبة، وهي خريطة يعلقها المسافر في الرحل للزاد ونحوه.
(٨) ارتقب: انتظر.

له، كان من ورائه التَّوفيقُ فيهِ والنَّجاحُ. وإن عَهِدنا في العمَلِ إلى غيرِ صالحٍ له، فقد أسْلمناهُ إلى الخراب، وقذفنا به في لُجَجِ الدَّمار(١).

فأُوصيكَ، أَيها النَّاشئُ، أن لا تَستعينَ في عَمل من أعمالك، إلاَّ بمن يكون له أهلاً. وإلاَّ أخفَقْتَ في سعْيك، وعَرَتك الخَيْبةُ في أمرك.

وإيَّاكَ أن تتولَّى عَملاً لا تَصْلُح له، كيْلا تكونَ من النَّادمين، ويكونَ مُوَلِّيكَ من الخاسرين، يومَ تأتيكَ ساعةُ الشُّؤم، فَتَذَرُكَ وعَمَلَكَ في الهاوية(٢).

فاحذَر ذلك، إني لك من النَّاصحين.

---

(١) اللجج: جمع لجة وهي معظم الماء ـ والدمار: الهلاك.

(٢) تذرك: تدعك وتتركك ـ والهاوية: الحفرة العظيمة.

التجويد[1]

تجويدُ العمل مع الإبطاءِ به[2] خيرٌ من الإسراع فيه مع إِرداِئه[3].

ولأن تمشِيَ كُلَّ يوم ساعة، وتستريحَ سائرَ اليوم حتى تصلَ إِلى المقْصَد[4] في راحةٍ، خيْرٌ من أن تسيرَ النهارَ كُلَّه، حتى تبلُغَ ما أَنتَ تقْصدُ له في مَشقَّةٍ وعناءٍ[5].

وعمَلك كُلَّ يوم ساعات معْدودَةً مَعَ إتقانِ صُنْعِك، أَولى من أَن تَجهدَ نفسك[6] اليومَ كلَّهُ حتى تَملَّ. فإِنَّ المَللَ داعيةُ الإِساءَةِ في العمَل وسبَبُ الانقطاع عنهُ.

العبادَة شيءٌ جميلٌ تصبو إليهِ[7] نُفُوسُ المؤمنين. ومَعَ هذا فالانقطاعُ إِليها، وتفْريغُ النفس لإِقامة شعائرها[8] أَمرٌ ذمَّهُ الشرعُ، لما في الإِكثار منها من إِردائها وإِهمالِ تجْويدها، حتى تكون نهاية الأَمر السَّآمة منها. وقد وردَ في الحديثِ: «**إِنَّ لربّك عليكَ حقاً، وإِن لنَفسك عليك حقًّا، وإِنَّ لأهلِكَ عليكَ حقًّا، فأَدِّ إِلى كلِّ ذي حقٍّ حقَّه**».

رأَينا كثيراً من النَّاس يَعملُونَ كَثيراً في وقت قليل، حتى إِذا آن وقتُ اسْتِثْمَارِ العمل[9]، لم يُوافق حسابُ الحَقْلِ حسابَ البيْدَرِ[10]. وما ذلك إِلا لأَن

(١) التجويد: التحسين والإتقان.
(٢) الإبطاء بالشيء: تأخيره.
(٣) الإرداء: الإفساد. أردأ الشيء أفسده، وأردأ الرجل: فعل رديئاً.
(٤) المقصد: مكان القصد.
(٥) العناء: التعب والمشقة.
(٦) تجهد نفسك: تتعبها وتحملها ما لا تطيق.
(٧) تصبو إليه: تميل إليه.
(٨) شعائرها: أعمالها. والمفرد شعيرة، وهي كل ما جعل عمله لطاعة الله.
(٩) آن: حان وقرب. واستثمار العمل: الانتفاع بثمراته.
(١٠) الحقل: الزرع ما دام أخضر، والأرض الطيبة المخصصة للزرع ـ والبيدر: الموضع الذي يداس فيه الحب. والعبارة مثل للعامة، يقال لما توافق مقدماته نتائجه.

الناسَ لا يختارون من العَمل إلا ما كان جيِّداً متقناً. فيبْذُلونَ في سبيله ما يَليقُ به من الثَّمن. وإِن أخذوا الرَّديءَ فلا ينفحون صاحبهُ إِلا بالنَّزْرِ اليسير[١] الذي يُساويه.

ورأَينا بعض الناس يَعملُون العَملَ القليل في متَّسعٍ من الوقت، ليزيدوا في إتقانه. ومتى دنت ساعةُ النَّتيجَة[٢] قَطفوا من أشجارِ صُنعِهم ثَمرات كثيرةً يانعة[٣]. وما هي إلا ثمراتُ التَّحسينِ والتَّجويد.

التَّجويدُ ضروريٌّ لحياة الأَعمال، وضربةُ لازِبٍ[٤] لمن أرادَ التَّوفيقَ فيها. وقد وردَ في الحديث: **«كَتَبَ اللهُ الإِحسانَ في كُلِّ شيءٍ»** والإِحسانُ معناهُ الإِتقانُ والتَّجويد. فَمن أَحسَنَ في عمله وجوَّدهُ فأَتقنَ تجويدَه، جنَى من وراءِ إِتقانه ما لا يعرفُهُ إِلَّا المُحسنون في أَعمالهم. ومن أساءَ فيه، كانت عاقبتُهُ الحِرمانَ والنَّدَم.

وما الأَعمالُ إِلَّا كالبساتين:

فكما أَنَّ البُستانَ الذي يُجوِّدُهُ البستانيُّ، ويخدُمُهُ خِدمةً صادقة يؤتي أُكُلَهُ جنيًّا[٥]، فكذلك سائرُ الأَعمال.

ليستِ العَجَلةُ في العَمَل سَببَ التَّوفيقِ فيه فَرُبَّ عجلةٍ أَعقبتْ ريثاً[٦]، وأَورثت ندامة. وإِنَّما التَّروّي في تجويده هو الداعي إِلى النَّجاح فيه. وقد وردَ في الحديث:

«إِن هذا الدِّين مَتين، فأَوْغِلْ فيه برفق[٧] ولا تُبغِّضْ لِنفسِكَ عبادَةَ الله، فإِنَّ المُنبتَّ[٨] لا أَرْضاً قطعَ، ولا ظهراً أَبقى».

---

(١) ينفحون: يعطون. نفحه بشيء أعطاه إياه ـ والنزر: القليل اليسير.

(٢) دنت: قربت.

(٣) يانعة: طيبة ينع الثمر وأينع: أدرك وطاب وحان قطافه.

(٤) هذا الأمر ضربة لازب وضربة لازم: أي ثابت لازم لا بدّ منه.

(٥) الأكل: بضم الهمزة والكاف، ويجوز تسكين الكاف أيضاً: الثمر، والرزق الواسع ـ وجنياً: غضاً طرياً، والجني: الثمر الذي قطف لساعته.

(٦) الريث: البطء.

(٧) أوغل فيه: ادخل فيه. أوغل في البلاد إيغالاً: ذهب فيها وبالغ وأمعن.

(٨) المنبت: المنقطع عن رفاقه في السفر، الذي أتعب دابته فانقطعت به «راجع شرحه في عظة الاعتدال، ص٨٣».

فاحذَروا أيها النَّابتُون، الإِسراعَ في العمَل من غير تجويد. فالإِسراع ـ قبلَ التَّرَوِّي ـ داعيةُ الخيْبَة، وسبَبُ الإِخفاق[١]، ـ والتَّأَنّي ـ معَ التَّحسين ـ سببُ التَّوفيق. وإِن النَّاسَ ـ كما قالَ الفَيْلَسُوفُ ـ لا يسألون عن سُرعة العمل، وإِنما يسألون عن جودَته[٢].

---

(١) الإِخفاق: الخيبة.

(٢) الجودة: بضم الجيم وفتحها: الصلاح. وجاد الشيء يجود: صار جيداً.

المــرأة

من أَمثالِ العَرَبِ: «كلُّ ذاتِ صِدار[١] خالة»، أَي: إِنَّ من حقِّ الرَّجل أَن يغارَ على كلِّ امرأَة، كما يغارُ على حُرَمِهِ، لأَنَّ كلَّ امرأَةٍ أُخت لأُمِّهِ في الجِنْسيَّة، فتكونُ خالةً لهُ.

كانت حالةُ المرأَةِ الاجتماعيةُ ـ ولم تزَل ـ على أَطوار مُختلِفة، وشكولٍ مُتَباينة[٢]، بالنِّسبةِ إِلى تَنوُّعِ الأَزمنة والبِيئاتِ[٣]. فهي بين صُعودٍ وهُبوطٍ، واحترامٍ واحتقار، وعلم وجهلٍ، تابعَةً تَرقِّي البِيئةِ وتَدَنِّيها[٤]، ونُورَ الزَّمَن وظلمتَهُ.

المرأَةُ لم تُخلق إِلا لِتكونَ والرجلَ عاملين في بُستان الحياة، بيدَ أَنَّ لكلِّ واحدٍ منهُما عَملاً خاصّاً بهِ، لا يجْمُلُ بهِ[٥] أَن يَتعدَّاهُ. فالرَّجُلُ يَفْلَحُ أَرضَهُ ويغْرِسُ غرسَهُ، وَيَبْذُرُ حَبَّهُ[٦]. والمرأَةُ تَتعهَّدُ الحَبَّ والغَرسَ بالسَّقي، وتنفي ما يُجاورهُما من فاسد النَّبات.

وما البُستانُ إِلا البيت. وما عَمَلُ الرَّجُلِ إِلا السَّعْيُ لِمن يَحويه من الأَهل، وبَذلُ الجُهْدِ لِيحيوا حياةَ السَّعادة. وما عَملُ المرأَة إِلَّا تنظيمُ المنزل وتَربِيةُ الأَطفالِ، وبَثُّ الأَخلاق الفاضلة[٧] في نُفوسهم، وتَنحيةُ الضَّرائبِ الفاسِدة[٨]

(١) الصدار: ثوب صغير يلي الجسم.
(٢) الشكول: الأشياء والأمثال، والأمور المختلفة المشكلة، والمفرد شكل، بفتح الشين - ومتباينة: مختلفة متضادة.
(٣) البيئات: جمع بيئة وهي المنزل، ويراد بها ما يحيط بالإنسان من المؤثرات.
(٤) التدني: الانحطاط.
(٥) لا يجمل به: لا يحسن به ولا يليق به ولا ينبغي له.
(٦) يبذر حبه: يلقيه في الأرض للزراعة.
(٧) البث: النشر.
(٨) التنحية: الإزالة والإبعاد ـ والضرائب: الطبائع، والمفرد ضريبة.

عن مواردِ قلوبِهم، ليتكوَّنَ منهُم مجموعٌ فاضلٌ، تنهضُ به الأمَّة، ويستدُّ بِهِ ساعدُ الوطن[١]، ويشتدُّ رُكْنُهُ.

فإن أَهملَ الرَّجلُ ما وجبَ عليه، أَو جاوزت المرأةُ ما خُلِقَت له، أَو قَصَّرَت عنهُ، فَسَدَ نظامُ الأُسرة[٢]، وَتَثَلَّمَ رُكنُ الحياةِ البيتيَّة[٣]، فكان من جرَّاءِ ذلك[٤] الفتُّ في عَضُد الأُمَّة والكَسْرُ في ساعد الوطن[٥]. لأنَّ صَلاحَ الأمة ونُهوضَ الوطن، مُتوقِّفان على صَلاح الأُسَر.

ولا ريبَ أنَّ سعادة النشءِ ـ وهُم عمادُ الأُمَّة ـ أَكثرُ ما تكونُ بالمرأَة. فهي إن شاءَت أَفسَدَت أخلاقَهم، وإن شاءَت أَصلَحتها، لأَنَّ بِيدِها زِمامَ تربيتِهِم وتهذيبِهم. لذلك وجبَ أن تكونَ المرأَةُ مُحترَمَة الجانب، رَفيعةَ المَنزِلَة، مُتعلِّمَةً، مُتَرِّبية، مُتخلِّقةً بالأَخلاقِ الجميلة، صالحةً لإِدارة المَنزِل، عالمةً بما وجبَ عليها نحوَ العالَم الصَّغير ـ أَلا وهو البيْتُ ـ.

وبعدُ، فَإِنَّ جَماهيرَ نِساءِ الشرق اليوم[٦] وقَبلَ بِضع مِئاتٍ من السِّنين[٧]، قد أُهملت كالسَّوائم[٨]. فقد ظنَّ الرجال أَنَّ المرأَةَ آلةٌ في أَيديهِم، يُديرونَها كيفَ شاؤُوا، زاعمينَ أَنها لم تُخلَق إِلا لتَكونَ أَسيراً أَو مَملوكة، واهتَضموا ما لها من الحُقوق الشرعيَّةِ والطَّبيعِيَّة، وحَرموها التَّعليم والتَّربية. فساءت بذلك الحياةُ البَيتيَّة، وفسَدَت الأُسرةُ، وانحطَّت الجماعاتُ بانحطاط الأَفراد.

---

(١) يستد: يكون سديداً قويماً.

(٢) الأسرة: رهط الرجل وأهله، سموا بالأسرة ـ وهي الدرع الحصينة ـ لأنه يتقوى بهم، وجمعها أسر.

(٣) تثلم: تشقق.

(٤) من جراء ذلك: من أجل ذلك.

(٥) الفت في العضد والكسر في الساعد: كناية عن إضعاف القوة وتفريق الأعوان.

(٦) الجماهير: جمع جمهور، وهو معظم الشيء وأكثريته. وأصل معناه: الرمل الكثير المتراكم الواسع.

(٧) البضع: ما بين الثلاث إلى التسع. فإن قلت: جاءني بضعة رجال جاز أن يكون الجاؤون ثلاثة أو تسعة أو ما بينهما. وهي تذكر مع المعدود المؤنث وتؤنث مع المعدود المذكر، كما هو الشأن في العدد من الثلاثة إلى التسعة.

(٨) السوائم: الإبل التي لا تعلف في مكان مبيتها، وإنما تترك ترعى مما تنبته الأرض من المرعى المباح.

وقد شَعرَ الشَّرقُ اليومَ بذلك الضَّعفِ والنَّقْص، فَنهضَ فيه بعضُ من هداهُمُ الله الصِّراط المُستقيم. وانصرَفت هِمَمُهُم إلى تعليم البنات وتَهذيبهنَّ. لأنَّهُم اعتقدوا جِدَّ الاعتقادِ أنَّ المَرأَةَ رُكنُ الحَياةِ الاجتماعيَّة الرَّكينُ[١]، وسَنَدُ نُهوضِ الأمَّةِ الأَقوى. ولكِنَّ هذا التنبُّهَ ضَعيفٌ، فَعسى أن يقوى بكم، أَيها النَّاشِئون الكِرام، فإنَّ للناشِئات عليكم حقوقاً عَظيمَة: لأنَّهُنَّ خالاتُكم، والخالَة كالأُم، أو هي الأمُّ. ومن لا يَوَدُّ لأُمِّهِ الحياةَ السَّعيدة!.

إن ما تَروْنَهُ من انحِطاطِ الجماعات، إن هوَ ناشِئٌ إلا منَ انحطاط المرأةِ وجَهلِها وفساد تربيَتِها. فَعَلِّمُوا البنات، تَسْتَحْوِذوا على الباقيات الصَّالحات[٢].

أَلا إن تبذيرَ المرأَة، وإِسرافَها، وحَيدانَها عن جادَّة[٣] الاقتصادِ في اللَّبوسِ والزينَة وغيرهما[٤] ـ حتى نَهكت ثروةَ الرَّجل[٥]، وجَرَّت على الهيئة الاجتماعية الوَيلات[٦] ـ هو لأَنها لم تَتعلَّمِ العلمَ المفيد، ولم تَترَبَّ التَّربيةَ الصحيحة.

فَعلَيْكُم، مَعشَرَ النَّاشئين، أَن تُرَبُّوا بناتِكُم ـ متى صِرتُم أَربابَ بُيُوت ـ تربيةً فاضلة، وتُعلِّموهُنَّ تعليماً مفيداً، يَنهض الوطنُ، وتَشرُفِ الأمة.

---

(١) الركين: القوي.
(٢) تستحوذوا: تستولوا ـ والباقيات الصالحات: الأعمال الصالحات التي يبقى أثرها الصالح وتعود بالثواب على فاعلها.
(٣) الحيدان: الميل والعدول ـ والجادة: وسط الطريق ومعظمه.
(٤) اللبوس بفتح اللام: كل ما يلبس.
(٥) نهكت ثروته: نقصتها أو أبادتها. يقال: نهك الضرع إذا استوفى جميع ما فيه ونهكت الحمى فلاناً إذا أضنته ونقضت لحمه، ونهك ماء الإناء إذا شرب جميع ما فيه.
(٦) الويلات: المصائب، والمفرد ويلة.

اعقل وتوكل

ما رأيتُ أَقَلَّ عقلاً، ولا أضعَفَ مُنَّةً[1] مِمَّن يُقْدِمُ على الأمر قبلَ أن يَستعدَّ له.

بَلَى، أَشَدُّ منهُ حُمقاً، وأَكثَرُ ضعفاً، مَن يَخوضُ ميدانَ العمَل قبلَ أن يأخُذَ لهُ عُدَّتَه، وهو يَعلمُ أن مَن عَمِلَ عَملَه كانت عاقِبةُ أَمرِهِ الخِسارَ والبوار[2].

وليسَ أَقلَّ بَلَهاً، مَن يَترُكُ الأُمورَ اتِّكالاً على البَخت وهُبوبِ رِياحِ المقادير، من غير أَن يَسعى فيما يُدْني له الشَّاسع[3] ويُسهِّلُ لهُ الصَّعب!

الإِخفاقُ في الطَّلب[4] ناتِجٌ عن أَحدِ أمرين ـ هما الطرَفانِ المُفسدانِ لكل مشروع ـ الجُبنُ والتَّهوُّر.

فالجُبْنُ يَصْدِفُهُ عن العمل[5]، ويَدَعُهُ[6] مُتَّكِئاً على عَصا المقادير. وإِنَّ الله قد جَعلَ لكلِّ شيءٍ سَبباً وسببُ النَّجاحِ في الأَمر السَّعيُ إِليه من أبوابه المُوصلة.

والتَّهَوُّرُ يَدفَعُهُ نحو غايتِه، قبلَ التَّرَوِّي في الأَسباب المُوصِلة إِليها، واختيارِ أَنجحِ الوسائل للحصُول عليها. وكثيراً ما تكونُ العاقِبةُ شراً وَوَبالاً[7]. ومن تأمَّل في العَواقب، أَمِنَ المصائب.

والسَّلامةُ من ذلك، أَن يَتريَّثَ قبلَ الإِقدام[8]. فلا يَندفعُ في العملِ إِلا

(١) المُنَّة: القوة.

(٢) البوار: الهلاك.

(٣) يدني: يقرب ـ الشاسع: البعيد.

(٤) الإخفاق في الأمر: الخيبة فيه أي عدم النجاح فيه.

(٥) يصدفه: يصرفه.

(٦) يدعه: يتركه.

(٧) الوبال: سوء العاقبة، والوخامة، والشدة.

(٨) يتريث: يتمهل.

بعدَ أَن يَعلَمَ عِلم اليقين ـ أو ما يَقرُبُ منه ـ أنه لا يَفشل عنهُ[١]. وليس معنى هذا أَن يُحجِمَ لأَوَّل صَدمةٍ، أَو توخُرَهُ شُبهةٌ تَعرِضُ له، فيتَّخِذَها حُجَّةً للإِحجام[٢]. فإِنَّ هذا هو الجُبنُ بعينه.

يُقدِمُ كَثيرٌ من الناس على الأَعمال العظِيمة، فلا يَلْبَثُ أَن يَعتورَ[٣] إِقدامَهُ الإِخفاقُ. ولذلك أسبابٌ، منها: إِهمالُهُ الأُهبَةَ[٤]، وعدَمُ اتخاذِ العُدَّة. وقد وَرَد في أَمثال العرَب: «عِنْدَ النِّطاحِ يُغلبُ الكبشُ الأَجَمُّ»[٥]، وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ للرَّجلِ يُمارِسُ الأُمورَ بغير عُدَّةٍ فَيخيب.

وكثيرٌ منهم يُهمِلُ الأَمرَ اتِّكالاً على أَنَّ القَدَرَ يَحفَظُهُ. وكانَ يَجبُ علَيهِ أن يَحفَظَهُ، ثم يَكِلَهُ إِلى عين العِناية ترعاه[٦]. وقد قال رجلٌ للنَّبي ﷺ: أُرسِلُ ناقتي وأَتَوَكَّلُ؟ فقال له: **«اعقِلها وتوكَّل»**[٧].

ومن أَمثالهم: «أَن تَرِدَ الماءَ بماءٍ أَكيسُ»[٨]، يَعنون بذلك أَن يأخُذَ الرَّجلُ الأَمرَ بالحَزم والوَثقة. ومن ذلك قَولُهم: «اشتَرِ لِنَفسكَ وللسُّوقِ»، يُريدون بذلك أَن يأخُذَ المَرءُ الحيطةَ لِنَفسه[٩]، قبلَ الإِقدامِ على العمَل، وأَن يَستشير من يَثِقُ بهم ليُرشدوه إِلى ما فيهِ الخير.

ومن الناس من إِذا تمكَّن من ناصية الأَمر[١٠]، عَقَدَهُ بأنشوطَة[١١]. حتى

---

(١) فشل عن الأمر: جبن فنكل عنه ولم يمضه. والمعنى أنه لم يتوفق. لأن من جبن عن أمر فتركه فقد خاب فيه ولم يوفق له. وأصل معنى الفشل: الجبن والضعف وذهاب القوة.

(٢) الإحجام: التأخر.

(٣) يعتور: يصيب. اعتوره الأمر: نزل به مرة بعد مرة.

(٤) الأهبة: العدة، جمعها أهب.

(٥) الأجم: الذي لا قرن له.

(٦) يكله: يسلمه ـ وترعاه: تحفظه وتتعهده.

(٧) اعقلها: اربطها. والعقل الربط. ومنه سمي العقل المعروف، لأنه يربط الإنسان أن يأتي ما يضره.

(٨) أكيس: أعقل، والكيس بفتح الكاف وسكون الياء: العقل والفطنة، وحسن التأني في الأمور.

(٩) الحيطة: الاحتياط.

(١٠) الناصية: مقدم الرأس ويراد بالتمكن من ناصية الأمر الاستيلاء عليه.

(١١) الأنشوطة: عقدة يسهل حلها.

إِذا أفلت من يَدِهِ، نَدِمَ على ذلكَ ندامةَ الكُسعِي[١]، وهيهاتَ[٢] أَن تُفِيدَهُ النَّدامة.

أَلا إِنَّ من كان كذلك، فهو ممَّن عُلِّمُوا قليلاً وليسَ لهم مَعقول[٣]. لأَنَّ العقلَ يَربأ بالمرءِ[٤] أَن يَرِدَ مَوارِدَ الإِهمال والاتِّكال، فالعاقلُ من لا يَرِدُ حتى يَعرِفَ الصَّدَر[٥]. فهو يُفاضلُ بين الضَّررَينِ لِيَرْتكبَ أَخفَّهما. فإِنَّ في الشَّرِّ خياراً. وليس العاقلُ من يعرفُ الخيرَ والشَّر، وإِنما هو من يَعرفُ خيرَ الشَّرَّين. فإِنَّ بعضَ الشَّرِّ أَهونُ من بعض.

فإِليك، أَيها النَّاشئ، يُساقُ الحديثُ.

إِحذَر أن تُباشِر عَملاً قبلَ الاستِعداد لهُ. ولا تَترُك عملاً من أَعمالك اتكالاً على ما سيجيءُ به القدَر. فالعاقلُ منْ عَقَلَ وتوكَّل.

---

(١) الكسعي: رجل يضرب به المثل في الندامة.

(٢) هيهات: اسم فعل ماض بمعنى بعد، وهي مثلثة التاء.

(٣) المعقول: العقل.

(٤) يربأ بالمرء: يرفعه وينهض به ويمنعه.

(٥) الصدر: الرجوع عن الماء بعد وروده.

الاعتماد على النفس

لا شيءَ أضرُّ بالإنسان من إهماله شُؤونَ نفسه، معتَمداً على من يقومُ لهُ بها. هذا إن تَحقَّقَ أنَّ مَن يَعتمدُ عليْه يُلَبّيه - إن دعاهُ - من غيْر تَريُّث[١] ولا بُطءٍ. أما إن كان نَصرُهُ إيَّاهُ أمراً مشكوكاً فيه، فاعتمادُهُ عليه ضربٌ من الجُنون.

جاءَ في أمثال العرَب: «عَمُّكَ خُرجُكَ»[٢]. يُقالُ ذلك للمتَّكل على غيره. وذلك أنَّ رجُلاً أراد السَّفرَ مَعَ عَمِّه، فقال لأَهْله: «اتخذوا لي طعاماً، واجعلوه في خُرجٍ، أُصيب منهُ إذا احتجتُ إليه»، فقالوا لهُ: «عَمَّكَ خُرجُكَ»، أي اتَّكل علَيْه في مطْعَمِكَ.

المعتمِدُ على غيره يكُون ضعيفَ الإرادةِ، بليد الحَزم، خاملَ النَّفس. وما سرى هذا الدَّاءُ في أُمَةٍ إلَّا انحلَّ عِقدُ اجتماعها، وفسدَ نظامُ عُمرانها، حيث تُصبح في مُؤَخرة الأُمم. فالاتكالُ على غير النفس مَدعاةُ الانقِراض، لأَنَّه يلْبسُ الإنسانَ رداء الضَّعَة[٣] والضَّعف، ويَصرِفُهُ عن النظر فيما يقودُهُ إلى حُصُون القُوَّةِ والمنعة[٤].

ينشأ الطِّفلُ معتمداً - في كُل شأن من شُؤون نفسِه - على أبويْهِ إلى أن يبلُغَ أَشُدَّهُ[٥]، ثم يَدخُلُ غِمار الحياة[٦]، وهو لا يعرفُ للاتكاءِ على عصا نفسه معنى، لأنَّه لم يتعوَّد ذلك في نشأَتِه الأُولى - ولكُلِّ امرئ من دَهره ما تَعوَّد -

---

(١) التريث: التمهل.

(٢) الخرج: معروف، وجمعه أخراج، ويجمع أيضاً على خرجة - بكسر الخاء وفتح الراء.

(٣) الضعة: الانحطاط والخسة.

(٤) المنعة: بفتح الميم والنون، وقد تسكن النون: العزّة، والقوة، والمعقل يمتنع به، والعشيرة لأنها تمنعه فلا يقدر عليه من يريده من الأعداء.

(٥) يبلغ أشده: يشب ويتقوى.

(٦) غمار الحياة: شدائدها.

فيزيدُ بذلك الأُمّة بلاءً على بلائها، وخِذلاناً على خذلانها.

متى نَشأ الولدُ فليُعَوِّدْهُ أبواهُ الاعتماد على نفسِه، في كلِّ أمرٍ من أُموره، حتى إذا شبَّ كان رجلاً يخدُمُ الأُمة خدمةَ الرجلِ القويِّ القادر، ومتى كَثُرَ مجموعُ الشُّبّان المُتَّكِئين على أَعضاد أنفُسِهِم[١]، تكَوَّنت منهُم أُمةٌ صالحةٌ لأَن تكُون وارثةَ الأَرض.

نحنُ في حاجة إلى شُبَّانٍ جُبِلُوا على الاستقلال في الفكر، والاعتمادِ على النفس، وما تأخرنا إلا بعد أن ضَعُفَ فينا هذانِ الخلُقان. وما تَرَقَّى الغربيُّون، وبلَغُوا الغاية القُصوى[٢] من المدنيَّة والعُمرانِ والسُّلطان[٣] إلا بعدَ أن ربُّوا نشأَهُمْ عليهِما[٤].

وليس معنى ذلك أن ينشأ الولدُ منفرداً برأْيه، مُستَبداً بفِكره، لا يستشيرُ أَهلَ العَقل والعلم. وإنما هو أن لا يَترُكَ التَّفكّرَ والعمَلَ، معْتمِداً على أَنَّ غيرَهُ يتَفكَّرُ أو يعمل. فإن رأَى أَنَّ فكرَ غيرِهِ أَضمنُ لنَجاح العملِ من فكره، انقادَ لهُ، وتمسَّك بعُراهُ[٥]. وإلا مضى فيما يُفكرُ فيه، وأَخرجَ عمَله إلى حيِّزِ الوجُود[٦].

فتَعوَّدْ أيها النَّاشئ، الاعتماد على نفسكَ، والاستقلال برأْيكَ ـ على نحو ما شرحتُ لكَ ـ تكُن من المُفلِحين.

واحذَرْ أن تَنقادَ لرأْيٍ يَدْفعُك في الهاوية، أو تُذْعِنَ[٧] لمن لا يَحفزُك إلى مَنهج السَّداد[٨].

ولا تَتَّبعْ أَمر من يُؤَمِّنُك من المَخوف ليورِّطَك فيه[٩] بل اتَّبعْ أمرَ من

---

(١) الأعضاد: جمع عضد، وهو الساعد.
(٢) القصوى: البعدى، مؤنث الأقصى.
(٣) السلطان: السلطة والقدرة.
(٤) النشأ ـ بفتح الشين ـ والنشء ـ بسكونها: جمع ناشئ.
(٥) العرى: جمع عروة، وهي كل ما يوثق به ويعول عليه. وأصلها: مقبض الدلو والكوز، وما يدخل فيه الزر من القميص ونحوه.
(٦) الحيز: المكان والجهة.
(٧) تذعن: تخضع وتطيع.
(٨) يحفزك: يدفعك ـ والمنهج: الطريق الواضح ـ والسداد: الصواب.
(٩) يورطك: يوقعك فيما لا تتخلص منه، وأصل معناه: يوقعك في الورطة ـ بفتح الواو =

يُخوِّفُك عواقبَ إساءَتِكَ لِتَحذَرها. فإنَّ من يُخوِّفُك حتى تلقى الأَمنَ أَشفَقُ عليْك مِمَّن يُؤمّنُك حتى تلقى الخوف. وقد جاءَ في أمثالهم: «أمرَ مبكِياتِك، لا أمرَ مُضحِكاتِك» أي الزَمْ من يُبكيك لِيُنجيَكَ، لا من يُضحِكُك ليُرديَك[١]. ومن خالف في هذا الأَمر، وخالفَ النصيحَ عنه[٢]، سَقطَ العِشاءُ بهِ على سِرحان[٣]، فكانت عاقبتُهُ الخُسران.

إنَّ هذا هو الحقُّ، فلا تَكُنْ من المُمتَرين[٤]. فاتَّبع ما يُلقى إليك، يُبارِك الله علَيْك.

= وسكون الراء ـ وهي الهوة الغامضة، والهلكة، والشدة، وكل أمر شاق تعسر النجاة منه يقال أورطه إيراطاً وورطه توريطاً، إذا أوقعه في الورطة.

(١) يرديك: يهلكك.

(٢) خالفني عن الأمر: ولى عنه وأنا أريده. وخالفني إلى الأمر: قصده وأنا مول عنه.

(٣) السرحان: الذئب. والكلام مثل في من ذهب في طلب أمر فكانت عاقبته منه الهلاك.

(٤) الممترين: الشاكين، امترى في الأمر: شك فيه وارتاب.

التربية

إِن هؤُلاءِ الأَطفالَ سيكونون في المُستقبل رجالاً. فإِذا تعَوَّدوا الأَخلاقَ الصَّالحة التي تُعلي شأنهم، وحصَّلوا من العلوم ما يَنفَعون بهِ وطَنَهُم، كانوا أساساً مكيناً[1] لنهضَةِ الأمة، وهذا أمرٌ لا يختلِفُ فيهِ اثنان. وإِن استعادوا سافلَ الأَخلاق[2]، وهَجروا العلمَ ـ الذي هو سَببٌ لحياة الأُمم ـ كانوا ويلاً على الأُمة، وشراً على البلاد التي يقطُنونها[3].

وقد ذكرتُ لك، أيها الناشئ فيما مَضى من العِظات جزءاً صالحاً من الأَخلاق حَسنها وقبيحها، وأوضحتُ لك ما يجبُ عليك التَّخَلُّقُ به. وكشَفْتُ عن الأَخلاق الفاسدة، التي ينبغي لك أن تَنفِرَ منها نَفْرَةَ الصَّحيح من الأَجرَب. فاختَرْ بعدَ ذلك ما تَراهُ لك نافعاً. وما إِخالك[4] مُختاراً إِلا ما أرشدتُك إِلى اختياره، لأَنك تَعلمُ جِدّ العلم أَني لك ناصحٌ أَمين.

التَّربيةُ، أَيُّها القومُ، أَمرٌ عظيمُ الخطر[5]، كبيرُ القِيمة. والطِّفلُ ـ كما قالَ الإِمامُ الغزاليُّ ـ أَمانةٌ عندَ والدَيه. وقلبُهُ الطَّاهرُ جوهرةٌ نَفيسةٌ خاليةٌ من كُلِّ نَقشٍ وصورة. فإِن عُوِّدَ الخيرَ وعُلِّمَهُ، نَشأَ عليه، وسَعِدَ في الدُّنيا والآخرة، وشاركهُ في ثَوابه أَبواه وكُلُّ مُعلِّم ومُؤدِّب. وإِن عُوِّدَ الشّرَ وأُهمِلَ، شَقِيَ وهَلَك. وكان الوِزْرُ[6] في رَقَبةِ وليِّه والقَيِّم علَيْه[7].

---

(١) مكيناً: قوياً.
(٢) استعادوا: تعودوا.
(٣) يقطنونها: يسكنونها.
(٤) إخالك: أظنك.
(٥) الخطر: الشرف وارتفاع القدر.
(٦) الوزر: الذنب.
(٧) ولي الطفل والقيم عليه: من يتعهده ويقوم بشؤونه.

التَّربيةُ: هي غَرسُ الأَخلاق الفاضِلة في نُفوس النَّاشئين، وسَقْيُها بماءِ الإِرشاد والنصيحة، حتى تُصبحَ مَلَكةً من ملَكات النفس[١]، ثم تكونَ ثَمراتُها الفضيلَةَ، والخيرَ، وحُبَّ العمَلِ لنَفعِ الوطن.

تَجِبُ تَربيةُ الطِّفلِ على الشَّجاعَة، والإِقدام، والجود، والصَّبر، والإِخلاصِ في العمل، وتَقْديم المَصلحةِ العامَّة على المصلحة الخاصّة، وشَرفِ النفْس، والجُرأة الأدبيَّة[٢]، والدِّينِ الخالص من الشوائب[٣]، والمَدَنيَّةِ المُنَزَّهة عن الفساد، والحُريةِ الصَّحيحةِ في القول والعمل، وحُبِّ الوطن.

وعلَيْنا أن نُرَبيَ فيهِ مَلَكَةَ الإِرادَةِ والصِّدق، وحبَّ إِعانةِ البائِسين[٤] والمَشروعاتِ النافعة، وأن نُعَوِّدَه القِيامَ بالواجب إِلى غير ذلك من الأخلاق الشَّريفة، وأن نُباعِدَ بَينَهُ وبين أضدادِ هذه الأخلاق.

ولكنَّ الحال اليَومَ عندَنا على غير ما شرحناه:

فالطِّفل ـ وهو في اللَّفائف ـ يُخَوِّفُهُ أبواهُ بالغيلان و«البَعابع» إرهاباً له[٥]، لِيَخلُصا من صُراخه. وما يَدريان أَنَّ نَفسَ الطِّفلِ كالشَّمْعة اللَّيِّنه، قابِلةٌ لكلِّ نَقْش، أو كَناقلِ الهيْئة «الفوترغراف» يَنطبعُ في زجاجته كُلُّ صورة. فإذا ما نشأَ، عاوَدَتهُ تلكَ النُّقوشُ والصُّوَر، التي طَبَعها في مُخيِّلَته[٦] أبواهُ. حتى إذا رأى غيرَ شيءٍ ظَنهُ شيئاً. فكانَت حياتُهُ ـ بما جَنَيْناهُ عليه ـ حياةَ خوفٍ وجُبْن وأَوهام.

فَإذا جاوزَ الطِّفْلُ دَوْرَ الطُّفولَةِ إلى دَوْر غيرِه ـ فَكان دارجاً[٧] فَحفِراً[٨]، فيافِعاً[٩] ـ أخذا يُرَبِّيانِه تربيةَ الحيوانات العُجم: بالانتهار تارةً، وبالضرب

(١) ملكة: صفة راسخة.

(٢) الجرأة: الشجاعة.

(٣) الشوائب: الأخلاط، والعيوب، والأدناس.

(٤) البائسين: جمع بائس، وهو من اشتدت حاجته.

(٥) إرهاباً: تخويفاً.

(٦) المخيلة: القوة التي تحول الأشياء وتصورها وهي مرآة العقل.

(٧) الدارج: الصبي الذي دب ونما.

(٨) الحفر ـ بالحاء المهملة: الصبي الذي سقطت رواضعه، وهي أسنانه التي تنبت وهو في الرضاعة.

(٩) اليافع: من قارب البلوغ، وهو من قارب العشرين من عمره.

المُبَرِّح[١] تارةً أُخرى. ولا تَسَلْ عمَّا يَسمَعُهُ من أَبَوَيهِ من بذيِّ الكلام[٢] والكَذِبِ، والنِّفاق، بَلْهَ[٣] ما يَكسبُهُ من سَيئِ الأخلاق وكثيراً ما تكونُ حَياتُهُ المدرسيَّةُ ليست خير من حياته البَيتيَّة، خُصوصاً إِذا كان الأُستاذُ أو المُرَبي مِمَّن غَلُظَتْ طِباعُهُم وخَشُنت أَخلاقُهُم، وفَسَدَت ضمائرُهُم، وإِن دُفِعَ إِلى مدرسةٍ كاملة فإِنَّهُ يُضيِّعُ في بيْته ما كسبهُ في مدرَسته.

ومتى شبَّ الناشئ كانت حياتُهُ في أُمته صورةً مُكَبَّرةً عن حياته في بيْتِهِ ومدرسته. فإِما أَن تَحيا به الأُمة حياةَ السَّعادة إِن كان قد تربَّى تربية صحيحَةً وإِمَّا أن تحيا حياةَ الشقاءِ، بما يجنيهِ عليها، إِن تَربَّى تربيةً فاسقة.

ربِّي أيتها الأُمة النابتةَ، تَكُن لكِ عَوناً وساعداً، وتَنهض بكِ من كَبوة الذُّلِّ والخُمول[٤].

وأنتم، أيها الناشئون، تَعَوَّدوا الخُلقَ الصَّالح، وأقدِموا على العلم النافع. إِنَّ ميدانَ العمَل أمامَكم، فاستعِدُّوا لخوْض غِماره[٥].

اليومَ الاستعدادُ لخدمة الأمة، وهناك ـ بعدَ انصِرام[٦] زَمَنِ الصّبا ـ يكُونُ السباقُ، وسَنَرى من يكُونُ الفائز. فمَن جَدَّ اليومَ نالَ في الغد. ومهما يَفعلِ الناشئ في هذه السنّ، فَسَوفَ يُلاقيهِ في زَمَن الشَّباب.

فما أَعدَدتَ أيها النابِتُ لِغَدِك، وأَيَّ عَمَلٍ تعمَل الآن، لتكُون أُمتُكَ سعيدَةً بك في المستقْبل؟

ـ أعددْتَ هِمَّةً ونَشاطاً، وعِلماً وأخلاقاً، وغَيْرَةً وحَمِيَّةً ومَحبَّةً وطَنِيَّة.

ـ باركَ الله عليْك، وحَقَّقَ آمالنا فيك، فَبِكَ يَعمُرُ الوطنُ وتحيا الأُمَّة.

---

(١) الضرب المبرح: الذي يؤذي الجسم.

(٢) بذي الكلام: فاحشه وقبيحه. ورجل بذيء: فاحش. والبذاء والبذاءة والبذاوة: فحش الكلام. يقال: بذو يبذو بذاء وبذاوة فهو بذي، وبذؤ يبذؤ، وبذأ يبذأ بذاءة فهو بذيء.

(٣) بله: اسم فعل أمر بمعنى دع واترك.

(٤) الكبوة: السقطة.

(٥) الغمار: جمع غمر، وهو الماء الكثير البعيد القعر.

(٦) الانصرام: الانقطاع والذهاب.

خاتمة العظات

السَّلامُ علَيكَ أيها الناشئ، ورحمةُ الله وبركاتُه.

وبعدُ فإنَّ صديقكَ ـ صاحبَ العِظات ـ يُوَدِّعُكَ وداعَ مُحبٍّ لك راغبٍ في نجاحك، ويرجو منكَ أن لا تنبذَ[١] عظاته ظِهْرِياً. فإنَّ روحَ المطالعةِ أن تعمل بما تقرأ. وما ضرَّ هذا الشَّرقَ إلا تَركُ العمَل بما يعلم.

إنَّ الأُمةَ تناديك، فَلْيكنْ جوابُكَ العَمَلَ لما يُحييها، والسَّعيَ في إصلاح شُؤونها. واعلم أنك لا تحيا حياةً طيِّبَةً إلا بحياتها، وقوَّةِ بأسِها[٢]، واستبحار عُمْرانها[٣]، وبسطةِ سُلْطانها[٤]، فاحزُمْ[٥] واعملْ، فإنَّ العمَلَ سعادةُ الحياة:

إذا ما شِئتَ أن تحيا عزيزاً
مَهيبَ الباسِ مَعروضَ القَناة[٦]
فلا تَرْجُ الحياةَ بِغَير حَزمٍ
يَفلُّ السَّيفَ مَحدودَ الشَّباةِ[٧]
ويَترُكُ في صمِيمِ الدَّهر جُرْحا

---

(١) تنبذ: تطرح.
(٢) البأس: الشدة والقوة.
(٣) استبحار العمران: اتساعه وانبساطه.
(٤) السلطان: القوة والسلطة والسيطرة.
(٥) احزم: كن حازماً في أمرك. حزم الرجل يحزم حزماً ـ من باب ضرب ـ كان حازماً.
(٦) مهيب: مخوف. ومعروض القناة: تحمل قناتك بالعرض ـ والقناة: الرمح. وعرض القناة: أي حملها بالعرض. كناية عن العزة والامتناع.
(٧) يفل السيف: يثلمه أي يحدث فيه شقوقاً ـ ومحدود: مشحوذ مسنون. والشباة: حد السيف والسكين ونحوهما، وجمعها شباً وشبوات.

يُحَيِّرُ دواؤُهُ نُطسَ الأُساةِ(١)
فهل من نهضَةٍ، يا نشءُ، نُدني
بها تلْكَ الأماني النائيات؟(٢)
وهل من نجدَةٍ منكم، فنسمُو
إلى أعلى النُّجوم الزَّاهرات؟(٣)
وهل من همَّةٍ وثبات جأش
نَهُدُّ به الجبالَ الرَّاسيات؟(٤)
فَقد طالَ الخمولُ، ونحنُ نلهو
ـ عن الخُلقِ الأَبي ـ بالمخزيات(٥)
فكم قد قام فينا من هُداةٍ
ولكنْ لا نُنَهنَهُ بالعظات!(٦)

فَهُبُّوا، أيها النَّاشئون، إلى المجد، وسيروا في سبيل العِزَّ، فإني:

أرى المجدَ الذي نبْغي عتيداً
أقام لِطالبِيهِ بالوصيد(٧)
فهبُّوا نَحوَهُ ودَعوا التَّواني
وسيروا سيرة الرَّجُلِ الرَّشيد(٨)

---

(١) الصميم: العظم الذي به قوام العضو ـ والنطس ـ بضم النون والطاء: الأطباء الحذاق، وطبيب نطس بفتح النون وسكون الطاء وكسرها: العالم ـ والأساة: الأطباء: والمفرد آس، والأنثى آسية، وجمعها آسيات وأواس.

(٢) ندني: نقرب ـ والأماني: جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان، ويجوز في الأماني تشديد الياء وتخفيفها ـ والنائيات: البعيدات.

(٣) النجدة: القوة، والشدة والمعونة ـ والزاهرات: المتلألئات بالأنوار.

(٤) الجأش: النفس.

(٥) الأبي: الممتنع مما يعيب ويجوز تشديد يائه وتخفيفها ـ والمخزيات: الأعمال التي تخزي صاحبها، أي توقعه في الخزي، وهو الهوان والعقوبة والبعد والندامة.

(٦) الهداة: جمع هاد ـ ولا ننهنه: لا نزجر.

(٧) عتيداً: مهيأ حاضراً ـ والوصيد: فناء الداء، وعتبتها.

(٨) دعوا: اتركوا ـ والتواني: التقصير والتمهل.

أَيُـعْـجِـبُـكُـم بـأَن نَـبْـقـى رُقُـودا
عن العلياءِ، نرسُفُ في القيود؟[١]
نَـصـحـتُ لـكـم، وفـي هـذا بَـلاغٌ
لـقَـومٍ راغـبـيـن عـن الـجُـمـود[٢]

(١) رقوداً: نياماً ـ ونرسف: نمشي مشية المقيد.
(٢) بلاغ: كفاية ـ إن ما ورد من الشعر في هذه العظة هو لصاحب العظات.

فهرس المحتويات